دُروسٌ مِنْ هَدْيِ ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ

سِلْسِلَةُ دُرُوسِ رَمَضَانَ

(ٱلدَّرْسُ ٱلثامِنَ عَشَر)

سُورَةُ النِّسَاءِ

مِنَ الآيَةِ ﴿٤٣﴾ إِلَى الآيَةِ ﴿١١٦﴾

أَلْقَاهَا ٱلسَّيِّد/ حُسَيْن بَدْرِ ٱلدِّين ٱلحُوثِي

بِتَارِيخ: ١٨ رَمَضَانَ ١٤٢٤ هـ

المُوَافِق: ٢٠٠٣/١١/١٢ م

ٱلْيَمَن - صَعْدَة

هذه الدروس نُقِلَتْ من تسجيل لها في أشرطة كاسيت،
وقد أُلْقِيَتْ ممزوجة بمفردات وأساليب من اللهجة المحلية العامية.
وحرصاً منا على سهولة الاستفادة منها أخرجناها مكتوبة على هذا النحو.

إعداد/ يحيى قاسم أبو عَوَّاضَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين.

اللهم اهدنا وتقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

في هذه الآيات كلام كثير حول اليهود، أو حول أهل الكتاب بشكل عام، وحول المنافقين أيضاً. وبشكل عام كل هذه الآيات من أول ما سمعناه من (سورة البقرة) وإلى الآن تجد فيها التوجيه إلى أن يكون الإنسان مركّزاً على أن يتفهم ما يُقدَّم إليه. ووجدنا الصلاة أيضاً في مقامات كثيرة يأتي ذكرها سواءً بشكل المحافظة عليها أو إقامتها، وهنا يأتي ذكر الصلاة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾(النساء:٤٣) لأن الصلاة عبادة مقصود فيها ومن غاياتها أن يكون الإنسان متذكراً، فيكون في الصلاة يعلم ما يقول عندما يُكبِّر، عندما يقرأ القرآن، عندما يُسبِّح، إذا أدى الإنسان الصلاة وهو لا يعلم ما يقول فلن يكون لها أثر في نفسه، أو يصلي وراء إمام للصلاة ولا يدري ما هي السورة التي قرأها الإمام.

الصلاة ذكر الله غايتها والشيء المهم فيها في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾(طه:١٤) لذكري: لذكر الله ولتتذكر الله لتكون ذاكراً في نفسك ومشاعرك ذاكراً لله سبحانه وتعالى، وذكْر الله هو الأساس بشكل عام لتقبل هداه وتفهم هداه والالتزام بهداه. هو هنا يُنبِّه المؤمنين على أن يكون الإنسان حريصاً وهو يصلي أن يعلم ما يقول ويتفهم ما يقول؛ ليحصل مما يقوله – وكل ما يقوله بالطبع هو من ذكر الله سواءً من القرآن أو التكبير أو التسبيح كله ذكر لله – يتذكر الله.

والصلاة لها دور كبير؛ ولهذا تجدها تذكر في مقامات متعددة يذكر طائفة من التوجيهات، من التشريعات ثم يذكر الصلاة؛ لأن المحافظة على الصلاة والغاية التي تتركها الصلاة في نفس الإنسان وهو ذكر الله قضية أساسية للحفاظ على بقية الأشياء. اختلفوا في موضوع: ﴿سُكَارَى﴾ هل سكارى من السُّكْر، أو سكارى بمعنى: نائمين أو ناعسين، المهم كيفما كانت أن خلاصة الموضوع هو: أن يكون الإنسان عندما يدخل في الصلاة مركّزاً على أن يعلم ما يقول، هذا هو المهم.

الصلاة عبادة لها أثر كبير في تطهير نفسية الإنسان؛ فيجب أن يكون الإنسان عندما يؤديها على طهارة: طهارة من الجنابة وطهارة من غيرها بالنسبة لثوبه وبدنه؛ ولهذا قال بعد: ﴿وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَرْضَى أَو عَلَى سَفَرٍ أَو جَاءَ أَحَدٌ مِنكُم مِنَ الْغَائِطِ﴾ الذي نسميه قضاء الحاجة ﴿أَو لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ وهذا من تخفيف الله لعباده، تخفيف الله على الناس إذا لم يجد ماء فليتيمم، وعندما يقول: يتيمم لم يقل يتيمم بشيء هو نادر ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ التراب، والتراب هو أكثر شيء موجود في الأرض ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾(النساء:٤٣).

إذاً هنا فيما يتعلق بالصلاة مع الحديث عن أشياء هي مقدمات للصلاة: الطهارة سواءً بالماء أو بالتراب، يركّز أولاً على تذكير الناس كيف يجب أن يكونوا في الصلاة عندما يقول: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾(النساء:٤٣) نلاحِظ هكذا فقه القرآن، فقه القرآن فقه شامل، يُقدِّم القضية من شتى جوانبها، لا يكون همُّه فقط هو: أن يذكر الأحكام فيها، ويذكر السُّنن والمندوبات والهيئات، وأشياء من هذه! بل يذكر المهم الرئيسي فيها: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ سواءً عندما تكون أنت الذي تقرأ: عندما تصلي فرادى، أو تصلي في الصلاة السرِّية، أو تكون في صلاة جماعة ويكون إمام الصلاة هو الذي يقرأ، الإنسان يستمع ليعلم ما يقول، ما يقول هو أو ما يقول إمام الصلاة.

عندما يقول: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا﴾ لأن الإنسان أحياناً يسمع ولا يعلم، أحياناً يقرأ ولا يدري، لا يدري أحياناً إلاّ وهو في: ﴿وَلاَ الضَّالِّينَ﴾(الفاتحة:٧) وأحياناً يسمع الإمام ثم لا يدري ما هي السورة التي قرأها. ﴿تَعْلَمُوا﴾ معنى تعلموا: تركّز بذهنك وتوجّه بذهنك لتعلم ما تقول أنت، أو ما يقول إمام الصلاة؛ لأن كل أذكار الصلاة هامة، الصلاة يجب عندما تقرأ فيها القرآن أن تعلم ما تقول، عندما تُسبِّح عندما تكبِّر كلها أذكار هامة، أذكار عظيمة لها فوائد عظيمة جداً.

تجد الصلاة مع أنها في نفس الوقت عبادة يُعبِّر فيها الإنسان عن خضوعه لله وهو يركع وهو يسجد، عن خضوعه لله، هذا شيء رئيسي فيها، ومن أجمل ما في الصلاة عندما تركع، وعندما تسجد، السجود هو علامة من أبرز علامات الخضوع الذي يؤدي إلى خضوع عملي، الخضوع الذي هو التسليم الداخلي والخضوع العملي عندما تسجد؛ ولهذا كان من أنسب ما يسجد الإنسان عليه أن يسجد على الأرض مباشرة أو أن يسجد على شيء له علاقة بالأرض، وهذا فقهياً هو الذي يعتبره الكل ما بين واجب وبعضهم يعتبره هو أفضل.

الصلاة لها إيحاءات كثيرة جداً ومهمة جداً، أي: في الوقت الذي هي تعبير عن خضوعك لله هي قد تعطي صورة عن حالة الإنسان في الحياة بشكل عام، تأتي أحداث يكون فيها قائماً، تأتي أحداث تركّعه، تأتي أحداث أحياناً تخضعه، وفي كل حالاته؛ لهذا تجد الصلاة حركاتها تقريباً من كل الحركات فيها ما هو قيام وركوع وسجود وجلسة مُعيَّنة التي يتم بها الاعتدال، فتكون مما تتذكر بأنك في كل حالاتك في كل ما يمر بك يجب أن تتذكر بأنك يجب أن تكون مرتبطاً بالله، وأنت في حالة الركوع تُسبِّح للعظيم، لم يكن الله هو الذي يركعك للآخرين، فسبحان الله أن يكون هو الذي يركّعني للآخرين، ولكن أنا الذي قد أركّع نفسي، فأنزهه وأعتبر أنه هو العظيم الذي يجب أن أتوجه إليه ليرفعني من هذه الحالة.

لاحِظ نبي الله يونس عليه السلام عندما ابتلعه الحوت وقد أصبح في بطن الحوت، أليست هذه كانت حالة صعبة جداً؟ أول ما انطلق أن ينزه الله أن يكون هو الذي أوقعه في هذه هكذا، إنما من جهته هو. أنت عندما تعمل أعمالاً قد تكون نتيجتها أن تُعاقبَ بما يُركعك بما يخضعك ويوقعك في مشكلة. في حالة السجود الإنسان يُسبِّح الله: (سبحان الله الأعلى) أليس الإنسان يُسبِّح الأعلى؟ تتذكر أن هناك أعلى، مهما كانت وضعيتك، وأينما وصلت، وأينما أوصلك الزمن – إذا صحت العبارة – أو أوصل الناس تقصيرهم وتفريطهم، يجب أن يُسبِّحوا الله وأنه الأعلى الذي يريد أن يكون أولياؤه ﴿الأَعْلَوْنَ﴾ يريد لأوليائه أن يكونوا هم ﴿الأَعْلَوْنَ﴾ كما قال: ﴿فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾(محمد:٣٥) تُسبِّح الله وترجع إلى الأعلى تنزهه وتتذكر بأنه هو الأعلى الذي يجب أن تخضع له فلا تخضع لآخرين، تسجد له ولا تسجد لآخرين.

الصلاة هي هامة جداً وأذكارها هامة جداً وإيحاءاتها كثيرة جداً، ولاحِظ أهمية التسبيح فيها فتجد التسبيح والتكبير بشكل واسع داخلها، إضافة إلى ما يُقرأ فيها من القرآن في الركعتين الأوليين، في الركعتين الآخرتين فعلاً الأفضل هو التسبيح؛ ليكون الإنسان قد سبَّح الله في قيامه وركوعه وسجوده.

إذا كنا نحاول أن نعلم ما نقول عندما نصلي، ونعلم ما نفعل ونحن نصلي، عندما أركع عندما أسجد عندما أعتدل عندما أقوم؛ فسيكون للصلاة أثر كبير في نفس الإنسان. الصلاة توحي للإنسان بأنه لا يزال هناك أمل أمامه مهما أوقعته الظروف في أيِّ وضعية كانت، أليس الناس أحياناً يقولون: (ركّعه الزمن، أو أخضعه كذا) هناك أمل في العظيم الكبير الأعلى وسيرفع الإنسان من أيِّ وضعية يصل إليها عندما يرجع إليه، ومقدِّمة الرجوع إليه أن تسبحه أولاً، أن تنزهه عن أن يكون هو هكذا في تدبيره – مثلما تقول – اعتباطاً، الذي أوصلك إلى هذه الحالة أو أوصل الناس إلى هذه الحالة، تسبحه، أنت الذي أوصلتَ نفسك وهو هنا يعطيك أملاً أن ترجع إليه وسيرفعك.

ألم تكن من أول الكلمات التي قالها نبي الله يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي﴾ أنا وليس أنت ﴿كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(الأنبياء:٨٧)؟

فالتسبيح داخل الصلاة في حد ذاته إذا كان الإنسان يعلم ما يقول فهو فعلاً يعطي صورة حقيقية بالنسبة لهذه الحياة، ويعطي نظرة حقيقية إلى واقع هذه الحياة، أنت لا تعتبِر أن ما يكون الناس فيه مِن وضعية سيئة هم فيها أن الله هو الذي جعل هذا، وهذه هي سنة من سننه طبع الحياة عليها، هكذا! هذا غير صحيح، أليس هنا ينزه؟ ولاحِظ أنبياء الله ألم ينزه يونس عليه السلام اللهَ من البداية؟ أي: ليس هذا عبارة عن سُنة من سننك سواءً تحت عنوان: ابتلاءات مثلما يقولون: (إذا أحب الله المؤمن صب عليه البلاء صباً)! أبداً لها أسباب؛ ولهذا جاء بعد: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ﴾(النساء:٧٩) بل آية قاطعة قبلها: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ باعتبار أسباب مِن عندكم ﴿فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَومِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾(النساء:٧٨).

ثم يوجِّه الخطاب إلى النبي نفسه (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) بأن ﴿مَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ﴾ أي: البداية من عندك، الخطأ من عندك، الغلطة بدأت من عندك، السبب الرئيسي من عندك، فيأتي هذا عقوبة، أو يأتي بأيِّ شكل كان، لكن منشأ القضية وأساسها وأسبابها من عندك، فعندما تفهم العكس، تفهم بأنه هكذا: الله هو الذي جعل هذه الحالة: تركيع المؤمنين تركيع المسلمين، إخضاعهم لأعدائهم، إضعافهم، تجهيلهم، هو هو الذي جعل هذه كسُنة، ثم يُقدِّمها البعض كدليل على أنك على الحق عندما تكون راكعاً على هذا النحو: أنت مستضعَف ومقهور وذليل وغريب في هذه الحياة، إذاً – يقولون – هذا هو علامة أنك على الحق! في المقدمة أن تسبِّح الله ثم ترجع أنت إلى نفسك فتقيِّم واقعك فتستغفر الله، وتعرف أن الله هو يريد لعباده أن يكونوا هم ﴿الأَعْلَوْنَ﴾.

هذه الآية فيما يتعلق بمقدمات الصلاة، فيما يتعلق بالطهارة تُعطي أساساً في التشريع أنه قائم على التخفيف، لم يجد ماءً فليتيمم بالتراب ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ مع أن الصلاة عظيمة، أليست عظيمة؟ هل قال: إذا لم يجد ماءً فليبحث عن ماء (ورد) أو عن أيِّ ماء يكون؛ لأن التراب لا يليق، أو أشياء من هذه؟ لا ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾(النساء:٤٣) التراب، عندما يوجِّه إلى أن يتيمم الإنسان عندما لا يجد ماءً معنى هذا أن له أثراً في التطهير.

ثم تجد الأشياء في موضوع إقامة عباداته، إقامة دينه، تجد أن مقدماتها هو يجعلها عادة مما هي متوفرة أو سهلة التناول، تجد الصلاة تقيس عليها حتى الجهاد نفسه، مقدمات الصلاة أن يكون هناك طهارة، ما هي الطهارة؟ أن تكون الطهارة من شيئين هما من أكثر الأشياء توفراً: الماء، والتراب، أليس الماء من أكثر الأشياء توفراً في الأرض والتراب من أكثر الأشياء توفراً في الأرض؟ فمع أهمية الصلاة، ويراد منك أن تقيم الصلاة وأن تحافظ على الصلاة وأن تؤديها على هذا النحو: تعلم ما تقول، فتأتي مقدمات لها وللدخول في أدائها، في إقامتها، في أداء هذه العبادة الهامة، تراها مقدمات سهلة التناول: ماءً أو تراباً. ما هو الشيء الذي ربطه الله بحالات نادرة جداً تبحث عنها مثلاً (زئبق أحمر) أو أشياء نادرة جداً أو (بيضة ديك)؟ هل هناك شيء من هذه في دين الله؟ تجدها كلها يُقدِّمها عبارة عن عبادات هامة، ويجعل وسائلها مما بالإمكان أن يتناوله الناس.

تلاحِظ في موضوع الجهاد، موضوع إقامة الدِّين ألم يقل هناك: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾؟ ترى الحديد من أكثر الأشياء توفراً في الأرض بالقياس إلى المعادن الأخرى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيبِ﴾(الحديد:٢٥) فعندما يقول: ﴿كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ﴾(الصف:١٤) ثم يكون المطلوب في أن تحقق نصراً لله هو أن تبحث عن (زئبق أحمر) أو تبحث عن أشياء نادرة جداً جداً، قال هنا: ﴿الْحَدِيدَ﴾ والحديد يملأ الأرض، وهكذا تقيس عليه الأشياء الأخرى.

هذه نفسها تنسف المفاهيم المغلوطة حول المقدمات لأداء الأوامر الإلهية، العبادات بكلها، لاحِظ في الجهاد أليسوا يُقدِّمون لك قائمة من النادرات: (ليس لدينا شيء، ولا نستطيع، ولا، ولا...إلخ)؟ أشياء كثيرة، لكن الله يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ﴾(الأنفال:٦٠) ما استطعتم من قوة: ما كان في متناولك، أنت معك لسان عندك قدرة أن تتكلم فتكلم، والكلام، الإعلام، المنطق يُعتبَر وسيلة هامة جداً من وسائل القوة، أنت عندك إمكانية أن تُقاطِع امتنعْ لا تشترِ، هل هي قضية صعبة ألاّ تشتري بضاعة أمريكية أو إسرائيلية؟ الحديد متوفر، وفي الغالب ترى المعارك لا تكون متوقفة على نوع واحد بل أرقى ما وصل إليه الإنسان إلى الآن هي: الأسلحة الذرية، جُمِّدت، أليست قد جُمِّدت هناك؟ حصل تسابُق إلى أن أدى في الأخير إلى تجميدها مكانها.

ترى المعارك تكون المعركة فيها الطائرة والدبابة وفيها المدفع وفيها البندقية وفيها الخنجر أيضاً، أليس الجندي يحتاج إلى الخنجر؟ إذاً فأمامك الحديد، بحسب قدراتك، وطوِّر قدراتك، أن تحصل على ما حصلت منه وهو كثير، أي: لاحِظ هنا المقارنة بين نصر الله في إقامة دينه أن يجعل الوسيلة من الأشياء المتوفرة بشكل كبير في الأرض ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ كما هنا في الصلاة يجعل مقدِّمة من مقدمات إقامتها شيئاً متوفراً في الأرض وهو الماء والتراب؛ لتكون عندك نظرة عامة، هكذا: بأن الله سبحانه وتعالى الذي يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(الحج:٧٨) أن هذه سُنة من سُننه يجعل الأشياء متوفرة.

إنما قد يكون الإنسان هو هو الذي يجهِّل نفسه هو الذي يعمل له قائمة من المستحيلات ويعلِّق الأمور بها، وإلاّ فالأشياء متوفرة وفيها مجال لأن تطور خبراتك فيها، وتحصل على أسلحة متطورة من خلالها كما عمل الآخرون.

ثم لاحِظ بساطة التشريع؛ ليلمس الإنسان الفارق بين تخريجات الفقهاء وتفريعاتهم وعباراتهم وبين أسلوب القرآن الكريم، ولا يمكن أن تَعتبِر بحال بأن ذلك الأسلوب هو ضروري، تفصيلي، بل تراهم عندما انشغلوا به أضاعوا الأشياء الهامة، كم ذكر في هذه الآية! آية واحدة ذكر فيها كيف تكون الصلاة، وذكر الطهارة من الجنابة، وذكر وأنت في حالة سفر، وذكر وسائل الطهارة ماءً أو تراباً وبعبارة: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيدِيكُم مِنْهُ﴾(المائدة:٦) أليست هذه سريعة؟ وانتهى الموضوع. لم يحتجْ إلى أن يقول: باب التيمم، بابٌ، وبابٌ للصلاة هناك، وأبواب أبواب كل واحد منها يُخرِج الناسَ مَخْرَج[1]! الأبواب الحقيقية هي هذه: هي أبواب يدخل الناس فيها وتُغلَق فلا يستطيع العدو إذا جاء أن يركلها، يبقون عاجزين حولها.

---

(١) مَخْرَج: يقصد هنا يخرج الناس إلى ما هو ضلال إلى ما هو ضياع.

وهو يترك المجال في حالات كثيرة كهذه للوضع الطبيعي للإنسان والفهم الطبيعي له ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيدِيكُم مِنْهُ﴾(المائدة:٦) كل إنسان يعرف وَجْهَه، لا نحتاج إلى أن نضع له حدوداً مِن شرْق ومِن غرْب ومِن جنوب وشمال، كل إنسانٍ عارف لِوَجْهِه، وكل إنسانٍ عارف ليديه، وكل إنسانٍ عارف للمسح ما هو، أليست قضية قريبة؟

حاوِلْ أيضاً أن تعطي رؤية منهجية للناس للمعلمين للمرشدين أن يكونوا هكذا هذا هو الأسلوب الصحيح وهو الأسلوب الذي بإمكانك على أساسه أن تُقدِّم للناس الأشياء الكثيرة مثلما أسلوب القرآن يتحدث عن الجهاد والصلاة والصيام والزكاة والإنفاق والنكاح والطلاق كلها في سورة واحدة، وبسهولة يستوعبه الناس، ويعرفه الناس.

عندما يقول لك: (أولاً اقرأ) تعال وأنت تقرأ باباً بعد باب، فصلاً بعد فصل، وترجيحات وأقوالاً وتفريعات وأشياء، كتاب واحد تبقى فيه أربع سنين، وما زال لم يصل إلى قناعة، ما زال هناك بحور، أو أشياء من هذه! هنا تجد فعلاً بأنه عندما لم تؤخذ منهجية تعليم الناس من خلال القرآن الكريم أنه – فعلاً – حصل ضياع للأمة وضياع للأعمار وضياع للأجيال، ضياع للناس، وهذا منشؤها: أن الإنسان ينسى أن الله أعلم منه، هذه واحدة من المصائب فعلاً.

يجب أن تعرف أولاً: بأن الله سيحاسبنا على كتابه، إذاً سنعمل بكتابه سواءً كان قليلاً أو كثيراً، سواءً كان زائداً أو ناقصاً، لكن لا، هم يقولون أيضاً: لا بُد أن نزيد تفصيلات، ولا تدري إلاّ وأمامك عمل أربع سنين في كتاب واحد، أربع سنين تقضيها، أي: أن هذا الأسلوب نعرف منه كيف تكون منهجيتنا التعليمية عندما ننطلق نُعلِّم، ولاحِظْ كيف قُدِّم بطريقة يمكنك أن تخاطب الناس بها، ليس ضرورياً أن يكون مع كل شخص كتاب حتى يكون طالباً، والطالب هو فقط من لديه حقيبة مليئة بالكتب. هو طالب علم عندما يكون جالساً هنا يستمع إليك إذا كنتَ تُقدِّم العلم بمنهجية صحيحة ستفيد الناس، سيعرفون أشياء كثيرة بسرعة.

تجد كيف ظهرت عبارات: (اتركوا الناس – أولاً – يقرؤوا، اتركونا أولاً نقرأ)! عندما نتحدث عن موضوع الجهاد مثلاً، عن موضوع مواجهة أعداء الله (يا أخي يبدأ الناس يقرؤون)! إذاً عندما تقول لي: (أولاً يقرؤون)! فضع لنا فترة محدودة، لكن سيتركه إلى أن يُتِم هذا الكتابَ وقال له: (بقي، وبقي، وبقي) في فن واحد، مثلاً: في الفقه (بقي، وبقي، وبقي) وشابَ وهو لم يعمل شيئاً، لا هو مَن صحَّت الأشياء عنده ولا قدَّم للأمة شيئاً! هنا في القرآن يُقدِّمها كلها، أليس يُقدِّمها كلها؟ وبشكل واسع جداً يُقدِّم ما يُعتبَر له علاقة بالجانب الأخلاقي بالنسبة للإنسان، ويُقدِّم له أيضاً ما يُعتبَر تقييماً لأعدائه كيف هم، تقييماً للمجتمعات كيف هي، ويُقدِّم له الأمم الماضية، ويعطي صورة عن المستقبل، ويُقدِّم له هذه الحياة، ويُقدِّم له الآخرة، ويُقدِّم له كل شيء في سياق واحد، وكلها تراها في كتاب واحد قد يكفي الإنسان وهو يتفهمه، عندما يستعرضه (يتلوه) كم سيظل الشخص يتلوه؟ شهراً تقريباً وهو يتلوه تلاوة طبيعية، أليس سيتلوه في شهر؟ كم سيفهم منه؟ أشياء كثيرة!

لم يأتِ في القرآن الكريم: (نبدأ) ما ظهرت (نبدأ أولاً نقرأ، نبدأ أولاً نقرأ) إلاّ عندما أصبحت الأشياء مطولة، وأشياء مُرهِقة، أشياء فعلاً تضيع عمرك بكل ما تعنيه الكلمة وفي الأخير تضيِّع الأمة (نبدأ، ونبدأ، ونبدأ...) حتى القرآن يقولون: (نبدأ، ونبدأ، تبدأ أولاً تقرأ أصول فقه، وتقرأ كذا، كذا... ثم في الأخير تصل إلى القرآن) الله أعلم متى سيكون!

لاحِظ الذين يسلكون هذه الطريقة لم يصلوا إلى القرآن إلاّ وقد أصبحوا أشخاصاً آخرين لم يعودوا على فطرتهم، قد أصبح ينظر للقرآن من فوق، وينظر إليه نظرة يحاول أن يحوِّل القرآن على وفق رؤيته التي قد صارت حاصلة عنده من الأشياء التي قد قضى فيها سنين، عندما تقول له: إن هذا خطأ، يرى أنه قد ضيع عمره فيها وقد أصبحت خطأ؟! لا بُد أن يشغّلها، قد قرأ كم سنين لم يعد مستعداً أن يضيعها، قد أصبح مصمماً على أن يشتغل بها؛ لأنه سيعتبر نفسه بأنه قد صار فارغاً عندما تقول له: لا نعتمد على هذه بل نعتمد على القرآن.

﴿وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾(النساء:٤٣) أليس الغُسل معروفاً عندما يغتسل الإنسان؟ معروف كيف يغتسل؛ إذاً انتهى باب الفقه هنا، ألم ينتهِ؟

ثم يتحدث عن اليهود: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ﴾(النساء:٤٤) الذي يقول الآن: (لا، ليس وقت هؤلاء، ليس الوقت مناسباً الآن، ابدأ أولاً، وابدأ...) ها هو القرآن تكلم عن هذا الموضوع وانتقل إلى هذا الموضوع وأمامك في دقيقة واحدة أو أقل، صلاة وغسل ووضوء أو تيمم، وبعدها: ﴿أَلَمْ تَرَ

﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ لأن الناس بحاجة إلى هذه كلها، يعرف الصلاة، ويعرف الطهارة، ويعرف اليهود والنصارى، ويعرف كل شيء، وهذه أفضل طريقة للناس أن يعرفوا، هو أسلوب القرآن الكريم، والقرآن بالذات أن يُخاطَب به الناس هم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: قد أوتوا نصيباً من الكتاب، ومع هذا تجدهم ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ يبيع الكتاب ويشتري به ضلالة: يستبدل ضلالة، إن هذه في حد ذاتها من مثارات الغرابة والعجَب منهم؛ لأنهم أوتوا نصيباً من الكتاب، وكان المفروض أن هذا الكتاب يترك أثرَه الطيبَ فيهم، لكن لا، تجدهم نفسيات أخرى وتعامُلهم مع الكتاب تعامُلٌ آخر حتى أصبحوا يشترون به ضلالاً، والذي يشتري ضلالاً فلن يصدِّر إلاّ ضلالاً.

﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾(النساء:٤٤) مَن هم هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب؟ أليسوا هم اليهود والنصارى؟ هذه تردّ على من يقولون: هم أهل ديانات سماوية! يقول لك: هم أهل كتاب، لكن لاحِظ كيف طريقتهم، هم أهل كتاب، لكن هكذا تعامُلهم مع الكتاب: اشتروا به ثمناً قليلاً، استبدلوا به ضلالاً، ثم تحركوا ليُصدِّروا ضلالاً ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي: أن تنظر إليهم؛ بأنهم وإن كانوا أهل كتاب أن لديهم ضلالاً، ولن يعطوا الناسَ إلاّ ضلالاً، ويريدون أن يضل الناس في كل سبيل ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ سبيل الحق في مجال هدى الله، في المجال الثقافي، سبيل عزتكم، سبيل نموكم الاقتصادي، سبيل تطوركم، سبيل وحدة كلمتكم، كل السبل الصحيحة يريدون أن نَضلها ونخرج إلى ما هو ضلال إلى ما هو ضياع.

فيجب أن نفهم هذه كقاعدة: أنهم (يريدون) والإنسان الذي يريد شيئاً عندما يتمكن من تنفيذه فإنه ينفذه، أليس هذا شيئاً حاصلاً؟ عندما تراهم متمكنين إعلامياً، مادياً، ومتمكنين سياسياً (نافذين) فافهم بأن كل ما سيعملونه هو: أن يعملوا ما يريدونه وهو ماذا؟ ﴿أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ كلمة (ضلال) مثلما قلنا: يجب أن نفهمها على معناها اللغوي على معناها العربي، نترك المصطلحات الأخرى، الضلال معناه: الضياع، انظر إلى ما يريد الله أن يكون الناس عليه وإلى ما يريد لهم من خلال القرآن الكريم، تجد أنه يريد لهم أن يكونوا هم ﴿الأَعْلَوْنَ﴾ وهم الأعزاء، هم الأقوياء هم... أي: في كل مجال، الهدى له علاقة بكل المجالات التي هي خير للإنسان، فالضلال معناه: ضياع هذه كلها، الضياع في كل مجال من مجالات الخير للناس.

عندما يُقدِّم مشاريع مُعيَّنة يجب أن تنظر إليها على هذا النحو: أنه يريد أن تضل السبيل الصحيح في النظرة إليه وفي التعامل معه، عندما يقدِّم لك مشروعاً على أساس أن تقول: (هذا فاعل خير، وأناس طيبون، وهم واللهِ أحسن منا، وهم كذا، كذا...إلخ) هنا ضللتَ السبيل، سبيل ماذا؟ سبيل أن تنظر إليه هذه النظرة الحقيقية، النظرة التي هو عليها؛ لتعرف واقعه، ولتعرف كيف تتعامل معه على أساس واقعه.

فيمكن أن يضللك سواءً بكلمة جميلة، أو بشيء يُقدِّمه (بخدمات يُقدِّمها) وهو يعلم ويحسب حسابات؛ لأنهم بخلاء يجب أن نعرف أنهم بخلاء والبخيل لا يُقدِّم شيئاً إلاّ وقد حسب ألف حساب لعائداته عليه، لا تتصور أنهم أمة عندهم روح الكرم مثل العرب، العرب معروفون بالكرم بالسخاء كقضية ثابتة لديهم أو عند معظمهم، أمَّا اليهود فهم بخلاء، هم بخلاء فعلاً، والبخيل لا يُقدِّم شيئاً إلاّ وقد حسب ألف حساب، لا يكون عطاؤه على أساس أنه كريم وسخي، وكيفما كان سواءً استفاد أو لم يستفد؛ لأنه هنا يعتقد أنه ذكي.

لهذا قلنا في الآية السابقة: إن من واجب المؤمنين أن يُشعِروهم هم أنهم أذكياء، أننا أذكياء، وأننا نعرف واقعهم؛ لأنه يَعتبِر نفسه ذكياً من كل الجهات، قدَّم مشروعاً هو عارف أن هذا المشروع (سنخدعهم به، ونجعلهم ينظرون إلينا نظرة جيدة، ويمكن لنا أن نحتل بلادهم ونهيمن على ثرواتهم، وسنأخذ أضعاف أضعاف مثل هذا المشروع، بل سنستغل هذا المشروع لنا نحن لصالحنا، سواءً كان مشروعاً صحياً أو مشروعاً تربوياً وفي الأخير نكون قد خدعناهم ولم نخسر شيئاً). أليس هذا يُعتبَر ذكاءً من عندهم؟ ولهذا قلنا: إنهم ربما قد يكونون يضحكون – فعلاً – بعد كل خطط يعملونها ويجدونها نجحت ويلمسون أن الناس تأثروا بها، أنهم سيضحكون هم ويعتبرون أنفسهم أذكياء، يعتبرون أنفسهم نوابغ، يعتبرون أنفسهم محنّكين.

فوجَّه المسلمين أن يشعروهم بما يحبط كل هذه الأشياء في أنفسهم، بما يجعلهم ينهزمون نفسياً بما يحسسهم أن الآخرين ما خُدعوا بهم وأنهم يعرفون واقعهم، على الرغم من كل ما عملوا، وكل ما حاولوا أن يعملوه للناس.

﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ في أيِّ حالة عندما يقول كلمة تراها جميلة وتبدو أنها جميلة وجذابة أو عندما

يعمل شيئاً يبدو وكأنه خدمة إنسانية، افهمْ – هذه قضية مرتبطة بإيمان الإنسان بالله وثقته به أنه هو الذي يعلمهم ويعلم نفسياتهم ويعلم أهدافهم – أنهم يريدون أن تضل السبيل الصحيح، وكلمة ﴿السَّبِيلَ﴾ هنا كلمة عامة، مثل كلمة (الكتاب) التي تأتي في بعض المواضع، أي: الجنس، أي: السبيل، سبيل الخير، سبيل الحق وهو متعدد باعتبار الحالات، أي: ما هو السبيل الصحيح في موقفي من القضية الفلانية؟ ما هو السبيل الصحيح في مجال التثقيف؟ ما هو السبيل الصحيح في مجال التنمية الاقتصادية؟ ما هو السبيل الصحيح في مجال بناء الأمة وتوحيدها؟ أليس هنا يَظهر سبيل؟

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾(النساء:٤٥) وهذه من النعمة الكبيرة على الناس إذا كنا نفهم، وإذا كانت مداركنا محدودة ووسائل أن نعلم ما لدى الآخرين محدودة لا يوجد عندنا أجهزة مخابرات دقيقة حتى نعرف ماذا يريدون، وماذا يهدفون إليه، وماذا، وماذا؟ أشياء مكلِّفة، الله سبحانه وتعالى يُقدِّم المسألة على هذا النحو، فقط تتذكر وتفهم، ويُقدِّمها بعبارات يفهمها الذكي ويفهمها الإنسان البسيط: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾(النساء:٤٤) امسكْ بهذه أمام أيِّ عمل تراه من جانبهم أمام أيِّ كلام يُقدَّم من جانبهم هم أو من يعملون متأثرين بهم؛ لأنهم أحياناً يخدعون أناساً ثم في الأخير يعملون هم لصالحهم! فلأن الضلال قد يأتي بطرق جذابة وخادعة وقد يحصل عند الإنسان تردُّد (كيف يريد هؤلاء أن نعاديهم وهم قد بنوا مستشفى خمسين سريراً أو أكثر، وخدمات عظيمة؟!) الله يقول: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾(النساء:٤٥).

وفي موضوع الضلال قد قدَّم لنا في القرآن الكريم كيف يكون الضلال: أن الضلال عادة يحتاج إلى أن يتقمص ثوب النصيحة والخير والحق وأشياء من هذه. أليس هذا شيئاً واضحاً في القرآن تحدثنا عنه أكثر من مرة؟ وأنه قضية هامة جداً: أن نعرف كيف يتم الضلال حتى لا تُوجِد القضية لديك ارتياباً واضطراباً عندما تراهم يُقدِّمون مشروعاً مُعيَّناً أو تسمع كلاماً يبدو أنه كلام جميل، أنت اعرفْ هكذا الضلال يعمل، ليس هناك أحد غبي من المضلين يقول: (أنا أريد أن أهلكك، أنا أريد أن أدمرك، أنا أريد بهذا المشروع أن أخدعك من أجل أن أحتل بلادك). هل يمكن أن يقول هكذا؟ لا يمكن هذا، بل سيقول: (خدمة إنسانية، وتعاون مع المجتمع، وتنمية المجتمع) وأشياء من هذه، الله يقول: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ إذاً فلنثق به، هو أعلم بهم، وهو قدَّم لنا ما يريدون، وهذا من أدق الأشياء، من أدق الأشياء أن يُقدِّم لك ما يريدون، عندما يقول: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ اعتبرْه تقريراً شاملاً عن هذا العدو تقريراً شاملاً بمعنى أن كل تحركاته ستكون بأن يضيّع هذه الأمة، بأن يضيّع الناس، يجعل الأمة منحطة، أمة متلاشية، أمة متخلفة، أمة لا تقوم لها قائمة.

تجد من الصعب في مجال مراقبة الأعداء لبعضهم بعض يمكن أن يتحرك تحركاً معيَّناً ويقول: هو لا يريد كذا، هذه حصلت أثناء نشوب الحرب الباردة ما بين (الاتحاد السوفيتي) و(الغرب وأمريكا) فيكون أهم شيء لدى المخابرات أن يعرفوا ماذا يريد. هنا الله أعطانا التقرير الرئيسي أو القضية الرئيسية في الموضوع: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ فليتحرك كيفما يريد، أعرف بأن كل حركته ستكون في مجال أن يضل الناس، لستَ بحاجة إلى أن تحاول أن تعرف موضوع أساليبه إلاّ لتعرف في الصورة كيف تجيب عليها كيف ترد عليها كيف تواجهها، أمَّا أن تتصور أنه يمكن أن يتحرك تحركاً خيرياً، أو تحركاً لا يحمل معه نوايا سيئة هذه القضية قد صارت محسومة ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ بمعنى أن أيَّ تحرك تراه لديك – وهو حتى يطور بلاده وهو يطور آلياته – فافهم بأنه في الأخير سيتجه إليك ليُضيّعك.

هو أعطانا في هذا التقرير أو القضية الهامة التي يبحث عنها الآخرون، المخابرات ضد بعضهم بعض في الصراع ما بين الدول يخسرون الكثير من الأشياء من أجل أن يعرف ماذا يريدون، ولا يرى أمامه إلاّ أشياء يُقيم عليها تكهنات فقط، واحتمالات أنهم يريدون كذا بعدما يسرد قائمة مُعيَّنة من المعلومات وتحركات مُعيَّنة، فيحاول أن يستنبط منها أنهم ربما يريدون كذا.

وهنا الله قال لنا: ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ من البداية ﴿أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾(النساء:٤٤، ٤٥) لاحِظْ هنا كيف يُقدِّم معلومات وافية وفي نفس الوقت يقول: يجب على الناس أن يعتمدوا عليه، وأن يلتجئوا إليه، وأن يهتدوا بهديه، وأن يتولوه وينتصروا به ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا * مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾(النساء:٤٥، ٤٦) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾... ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ فلأهمية الموضوع هذا مظهر من مظاهر رحمة الله سبحانه وتعالى أن يبادر إلى أن يشعر الناس بأنه هو وليهم فلينتصروا به وكفى به ولياً وكفى به نصيراً، يأتي بها داخل الكلام نفسه ما بين كلمة ﴿أَعْدَائِكُمْ﴾ و﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أليس أصلها هكذا الكلمة (والله أعلم بأعدائكم،

من الذين هادوا)؟ أن تأتي في هذا المقام للأهمية وفي نفس الوقت أن تعلم أنه ولي وناصر من الأعداء الذين هو يعلمهم وهو ولي وناصر يكفيكهم إذا سار الناس على هديه وتولوه وانتصروا به واعتصموا به.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾(النساء:٤٥) لا تبحثوا عن غيره، هنا عندما يُقدِّم نفسه ولياً وكافياً فلتتجهوا إليه لستم بحاجة إلى أن تتجهوا إلى أيِّ أطراف أخرى، أن تبحثوا عن (الصين) أو تبحثوا عن (روسيا) أو تبحثوا عن أي جهة، مثلما يعمل العرب الآن، بل اتجهوا إليه واكتفوا به ولياً لكم وناصراً لكم ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ﴾(النساء:٤٦) عندما يقول: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ يقول لك هذا العدو – وفعلاً هم يعتمدون على مسألة التحريف للحقائق – يقول لك إنه يريد المصلحة لبلدك وهو يريد نهب ثرواتها ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ﴾ وقِسْ عليه تحريف الأشياء عن حقائقها تحريفاً أمامك يُظهِر شيئاً وواقعه شيء آخر في مقاصده يقول لك كلاماً معسولاً وواقعه يريد لك الضلال يريد لك الشر.

ثم عندما تجد بأنهم هكذا يحرفون كلام الله من بعدما عقلوه وهم يعلمون، وترى هكذا تعاملهم مع الله سبحانه وتعالى، يجب أن تفهم بأن الذين تعامُلهم مع الله هكذا فلا يمكن أن يراعي معك أيَّ شيء، لا يمكن أن يراعي معك أيَّ عهد ولا ميثاق ولا ينظر إليك نظرة جيدة؛ لأن نظرتهم إلى الله هكذا، هل يمكن أن يستحي من الإنسان وهو لا يستحي من الله؟ هل يمكن أن يلتزم مع الإنسان وهو لا يلتزم مع الله؟ هل يمكن أن يلتزم بميثاق مع الناس وهو لا يلتزم بميثاق الله؟

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَينَا وَاسْمَعْ غَيرَ مُسْمَعٍ﴾(النساء:٤٦) وأيضاً يقولون للنبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) الذي قد عرفوه كما يعرفون أبناءهم: ﴿وَاسْمَعْ غَيرَ مُسْمَعٍ﴾ «لا سَمِعْتَ) كما نقول، دعوة عليه، أي: "اسمعْ صنّجوا أذانك" كما نقول، ألسنا نقول هكذا في عباراتنا؟

﴿وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾(النساء:٤٦) استخدام كلمة ﴿رَاعِنَا﴾ وهي كلمة عربية مفردة عربية معناها معروف، معناها: أمهلْنا أو أنظِرْنا، يحاول أن يجعل لها معنىً سيئاً من عنده، يستخدمها مصحوبة بهذا المعنى السيئ، وهذا مما يدل على أن عداوتهم هكذا، يحاول بأيِّ طريقة حتى كلمة إذا يمكن أن يحوِّلها عن معناها الطبيعي فتصبح كلمة سب سيستخدمها بمعناها السيئ ما بالك باستخدام أشياء أخرى، شيء ممكن أن يستخدمه مهما كان يبدو بسيطاً، كلمة يحوِّلها بمعنى سيئ سيستخدمها.

﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِم﴾ يلوون ألسنتهم على طريقة (يُحرِّفون) على طريقة التحريف ﴿وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ الطعن في النبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) عندما يستخدمون معه مفردة كهذه – وهو يُوجِّه وهو يهدي – يُعتبَر طعناً في الدِّين، فعندما تسمع منهم كلاماً الآن ضد رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) اعتبر بأنه هو طعن في الدِّين؛ لأن موقفهم من النبي ليس إلاّ لهذا الدِّين الذي جاء به، هل لهم موقف آخر منه إلاّ لأنه رسول لله ولأنه أُنزِل عليه كتاب الله ولأنه دعاهم إلى أن يؤمنوا به؟ فهم كما قال هنا: ﴿وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾.

﴿وَلَو أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(النساء:٤٦) إمَّا إيماناً جزئياً، أو إيماناً عند القليل منهم، يؤمن قليل منهم، وهذا ما وقع، المؤمنون منهم قليل بالنسبة لمن بقوا على خبثهم و(يَهْوَدَتِهم) هم قليل.

هنا يوضح كيف أن عداوتهم ليست عداوة تعتبرها قد تكون في حالة مُعيَّنة أو في ظرف مُعيَّن، بل عداوة ثابتة لديهم، وعداوة متجهة إلى الناس لأنهم يدينون بهذا الدِّين؛ لأنهم يريدون للناس أن يضلوا كما قال في آية أخرى: ﴿حَسَدًا مِنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾(البقرة:١٠٩) فهذا يُعطي الناس أن يكون لديهم موقف ثابت من أهل الكتاب، موقف ثابت، أي: يقوم على هذه الرؤية: أنهم يحملون نفوساً عدائية، يحملون حقداً، يحملون غيظاً شديداً، يحملون غلاً، وليس فقط لشيء مُعيَّن جاء من عندك؛ بل لأنك مسلم لا ينجيك منهم إلاّ أن تكون كما يريدون هم: ضالاً تضل السبيل؛ حينها سيرتاحون، أو تريد أن يرضوا عنك فلتترك ملتك، تترك هذا الدِّين وتتبع ملتهم، وما هي ملتهم؟ يصبح الإنسان من هذه النوعية، أليس هذا أسوأ شيء؟ إن الله قدَّم صورة عنهم، عن واقعهم، عن أعمالهم، عن مقاصدهم، عن نظرتهم إلى البشر بالشكل الذي لا يمكن للإنسان على الإطلاق – حتى لو لم يكن صاحب دين نهائياً لو لم يحمل ديناً – أن يكون كمثلهم، يجب ألاّ تقبل على الإطلاق حتى لو لم يكن هناك دين نهائياً؛ لأن هذه نوعية سيئة جداً، يعمل الإنسان على أن يترفع بنفسه ويربأ بنفسه عن أن يكون كمثلهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُم مِن قَبْلِ أَن نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَو نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾(النساء:٤٧) لاحِظْ هنا كيف الموقف منهم، وفي شرح ما هم عليه، وفي توجيه المؤمنين كيف ينظرون إليهم، لا ينسى موضوع دعوتهم إلى أن يؤمنوا بهذا الكتاب ويؤمنوا بالرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) وفيها تهديد هنا: ﴿مِن قَبْلِ أَن نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَو نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ أصحاب السبت كأنهم الذين اعتدوا في السبت جعل منهم قردة وخنازير، وهذا معنى اللعنة، أي: أن اللعنة من جهة الله تعني ماذا؟ إيقاع عقوبة، إيقاع خزي على من يقضي بأن يلعنهم وأنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير وغالب على أمره ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ يستطيع أن ينفّذ ما هدد به وتوعَّد.

معنى هذا أن الناس مهما كانوا في مواجهتهم لا بُد أن يُرفِقوا في عملهم دعوة لهم وتهديداً بما هددهم الله به، وشيء أساسي في الدعوة أن تقول لهم: (هذا القرآن فاطّلعوا عليه) أساسي في الدعوة، القرآن الكريم نفسه في حد ذاته أن يقال لهم: (اطّلعوا عليه، تدبَّروا آياته، تأملوه) يُعتبَر في حد ذاته دعوة لهم ودعوة شاملة. تكون هذه القضية هامة، يعتقد الناس – خاصة مَن هم في هذا الاتجاه – (ما بدوا في الصورة بوسائل يمكننا أن ندعوهم ونوجه خطابات إليهم ونذكّرهم على نفس هذه الطريقة القرآنية، لا يوجد لدينا لا قنوات فضائية ولا إذاعات ولا مجلات ولا صحف ولا شيء) لكن وجود القرآن وهو منتشر وبإمكانهم أن يطّلعوا عليه يُعتبَر في حد ذاته دعوة كاملة.

وهذه القضية هي أيضاً مثلما قلنا سابقاً عند قول الله تعالى: ﴿لَيسُوا سَوَاءً﴾(آل عمران:١١٣) أن تذكّر الناس بموقفهم الرئيسي، وهو: أنهم من أجل الله وفي سبيل الله وأنصار لدينه فلا يطغى على مشاعرهم مواقف مُعيَّنة دون ماذا؟ أن يُذكّروا بمهمتهم الرئيسية. هذه لها أثر حتى عند العدو نفسه، لها أثر عند العدو نفسه أن موقفك هو هذا الموقف: أنك تريد منه أن يؤمن وأنت تدعوه إلى أن يؤمن ومتى ما آمن فله ما لك وعليه ما عليك، ولا تتم هذه إلاّ إذا كانت حركة الناس دينية وفي سبيل الله وعلى أساس كتابه، أمَّا تحت عناوين أخرى فلا تستطيع، مثلاً تحت عنوان: وطنية أو قومية، لا تستطيع أن تقول لليهود: كونوا عرباً أو كونوا يمنيين، هل تستطيع؟ وهي قضية ليست مقبولة، لكن هنا عندما يكون العمل في سبيل الله وعمل لإعلاء كلمته ونصره فيمكن أن تسلك نفس هذه الطريقة، فيكون موقفك هو هذا الموقف في نفسيتك: أنك إن تتحرك من أجل الله وفي سبيله مهما كنتَ قوياً عليهم فأنت أيضاً تدعوهم إلى أن يؤمنوا بالله وبرسوله وبكتابه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾(النساء:٤٨) هذه الآية لا يزال لها أيضاً ارتباط بموضوع اليهود بموضوع أهل الكتاب، ليست آية وحدها، يأتي أحد يأخذها وحدها، لاحِظ عندما تتأمل في القرآن الكريم تجد فيه بأن الناس يختلفون في مواقفهم، حتى داخل الصف الكافر نفسه هناك قال: ﴿لَيسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيءٌ أَو يَتُوبَ عَلَيهِمْ أَو يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾(آل عمران:١٢٨، ١٢٩) عندما ذكر عن اليهود ﴿وَلَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾(النساء:٤٦) لأن لديهم أشياء لا تُغفَر فهو يذكّرهم بمعنى ماذا؟ لا يُغتفَر لهم فيُهدَون؛ لأن هذا موضوع آخر داخل الآخرين، قضية أخرى النفوس تختلف، المواقف تختلف، والرؤى تختلف، فقد يكون هناك أناس من الكفار يمكن أن يهديهم الله ليسلِموا وأناس لا يمكن أن يهتدي على الإطلاق، لا يوفق على الإطلاق إلى أن يستجيب للهدى فيسلِم.

فاليهود لديهم أشياء شركية متشبثين بها ومصبوغة بصبغة دينية، هذه قضية خطيرة، من أخطر الأشياء عندما تكون الأشياء سيئة معتقدات ثقافة وتصبغ بصبغة دينية وتُنسَب إلى الله؛ هنا تشكّل عائقاً خطيراً جداً لا يتزحزح، في الغالب لا يتزحزح.

فعندما توعَّدهم: ﴿أَو نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً * إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾(النساء:٤٧، ٤٨) هنا حصل خلاف فيما بين (العدلية) و(المجبرة) الذين عندهم عقيدة: أن الله يغفر كل شيء فقط لا تكون مشركاً بالله! افهمْ، يجب أن تفهم سياق الآية، يجب أن تفهم نظائرها في القرآن يجب أن تعرف التوبة كيف هي، آيات كثيرة جداً. ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ معناه: سيلعنهم كما لعن أصحاب السبت، وهكذا كانوا، لعنهم ﴿وَلَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(النساء:٤٦) هكذا ماذا؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾(النساء:٤٨) لديهم اعتقادات شركية مصبوغة بصبغة دينية متشبثين بها ويكون لها هذا الأثر الذي لا يمكن بسببه أن يهتدوا ولا يتوفقوا.

حصلت آيات شبيهة بهذه مع الكافرين ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَا قَدْ سَلَفَ﴾(الأنفال:٣٨) لأنه في قضايا يمكن أن يُغفَر نفس الموضوع فلا يعاقب على نفس تلك القضية التي قد انتهى عنها ﴿وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾(الأنفال:٣٨) المغفرة قد تكون على قضية مُعيَّنة، بل داخل أمة مُعيَّنة لو لم يكونوا قد أسلموا غُفِرَت لهم فلم يُعاقَبوا عليها، ليس معنى المغفرة هنا: مغفرة الذنوب كلها داخل إطار المسلمين في الأخير تكون النتيجة بأن كل معصية يعملها الإنسان مغفورة وكل الكبائر مغفورة إلاّ أن يُشرَك به! هذه عقيدة غير صحيحة؛ لأن الشرك بكله إنما كان كبيرة لأنه يمثل صداً عن أن تلتزم بهدى الله ودينه، الشرك بكله إنما كان كبيرة لأنه في الأخير يجعل الإنسان بعيداً عمَّا هو من جهة الله عن أن يقبل هدى الله أن يتقبله، هنا اعتُبِر كبيرة. كيف تُقدِّم الشرك فقط بأنك إذا لم تكن مشركاً فكل الذنوب تُغفَر لك بمعنى ماذا؟ أنك إذا كنتَ غير مشرك فلك ألاّ تلتزم بشيء! أليس معناه هكذا؟! إنما كان الشرك كبيرة لأنه يحول بين الإنسان وبين أن يلتزم بما هو من عند الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾(النساء:٤٨).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾(النساء:٤٩) تَقدَّم من خلال آيات كثيرة داخل القرآن الكريم: أن الإنسان يجب أن يكون دائم الرجوع إلى الله والالتجاء إلى الله، ويعترف بالتقصير وبالنقص أمام ما ينبغي لله سبحانه وتعالى، ويرجو دائماً، يكون راجياً لله يقول: (إن شاء الله أن يوفقنا، وأن يغفر لنا، وأن نكون طيبين، وأن نكون مؤمنين، وأن نكون صالحين...) وهكذا.

﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ هذا مما يمكن أن نفهمه: أن الإنسان لا ينفرد بنفسه فيصبح يَعتبِر نفسه قد وصل إلى مستوى: أنه لا يحول بينه وبين دخول الجنة إلاّ أن تقوم القيامة فقط وتُفتح له أبواب السماء وأبواب الجنة! يجب أن يستشعر بأنه ماذا؟ بأنه مقصر أمام الله وأنه بحاجة إلى رعاية الله وبحاجة إلى توفيق الله.

اليهود كانوا يزكّون أنفسهم مثلما قالوا هناك: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾(المائدة:١٨) ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَو نَصَارَى﴾(البقرة:١١١) وأشياء من هذه، يحكمون لأنفسهم بهذه، وتكون بالشكل الذي ماذا؟ في مواجهة هدى الله في مواجهة نبي الله وكتاب الله ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾(النساء:٤٩) فيجب أن تقبل ما يأتي من جانبه؛ لأنه هو الذي هو تزكية لك.

﴿انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾(النساء:٥٠) عندما يقول: ﴿انظُرْ﴾ في موضوع يتعلق باليهود؛ لأن معناه قد علم أشياء كثيرة من جانبهم مما يحكمون بها لأنفسهم بأنهم زاكون وأنهم مهتدون وأنهم، وأنهم...إلى آخر ما يدَّعون لأنفسهم، وفي نفس الوقت يستخدمونها في مواجهة ما هو من عند الله، والله هو الذي يزكي عباده، هي هذه الطريق، فيهديهم، فمن اهتدى فقد يوفقه. فكل ما يدَّعونه في الأخير يكون افتراءً على الله عندما يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ أليس هذا افتراءً على الله؟ ولهذا قال هنا: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ رد عليهم: بأن القضية ليست بهذا الشكل ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾(المائدة:١٨).

﴿انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ وفي أعمالهم أشياء كثيرة مما يقدمونها من المعتقدات، عندما يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون: (هذا من عند الله) عندما يحرفون كلام الله، أشياء كثيرة تُعتبَر في الأخير افتراءً على الله ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ هذه من أكبر الجرائم: الافتراء على الله، نعوذ بالله.

قد يكون هناك حالات مشابهة لهذه في داخل المسلمين، أحياناً تأتي قائمة من الأشياء يرتبها بعض الناس ثم يقول لك: (لا، نحن سائرون على هذه الطريقة) في مواجهة أن تقول له: نعود إلى كتاب الله ونقيِّم أنفسنا ونقيِّم ما لدينا على أساس كتاب الله يقول: (أبداً نحن متمسكون بالسلف الصالح ونحن على ما عليه السلف الصالح) وأولئك قالوا: (نحن على ما عليه أهل البيت، وهذا هو تراث أهل البيت، وعلوم أهل البيت) وهكذا. عندما تقول: يجب أن نرجع إلى كتاب الله ونعطيه أولوية مطلقة ونهتدي به، ونقيِّم ما لدينا على أساسه ونستفيد من هذه الأحداث التي نحن نعاصرها ونستفيد من التاريخ أيضاً، نعرف كيف كانت النتائج السيئة بسبب أن هذه بعيدة عن كتاب الله، هذه الأشياء التي نحن نتشبث بها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾(النساء:٥١) لاحِظ هذه مثلما قلنا سابقاً عندما يقول: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ وتعرف كتب الله من خلال معرفتك بالقرآن نفسه؛ لأن كتب

الله تكون هدى ورحمة وبياناً وموعظة ونوراً وشفاءً ومع هذا تجد كيف أصبحوا؛ لأنهم ابتعدوا عنها وحرَّفوها وسلكوا طريقة أخرى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ أليست كتب الله مما يهدي الناس ليبتعدوا عن الجبت والطاغوت؟ وبدل أن يؤمنوا بكتاب الله ويؤمنوا برسوله، يؤمنون بالجبت والطاغوت؛ لأن طريقتهم هكذا: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ﴾(النساء:٤٤) كما قال في الآية السابقة.

ليس عندهم إيمان بما يسمى بالعدل وقيم عدالة وأشياء من هذه التي يرفعونها شعارات، تجد أنهم يرفعون هذه الشعارات وهم في نفس الوقت يتدخلون في شؤون هذه الشعوب ويضعون عليها حكّاماً طواغيت، هم؛ لأنها قضية طبيعية لديه، مؤمنون بالجبت والطاغوت ويعمل طواغيت، من أجل ماذا؟ تتحقق له أهدافه، فمَن هم مؤمنون بالجبت والطاغوت لا يمكن أن يبحثوا عن عدل للناس وأنظمة عادلة للناس ونظام عادل للناس على الإطلاق، ولا أشخاص عادلين، هذه قضية كما قال عنهم سابقاً: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾(النساء:٤٤) من هو مشترٍ للضلالة فلا يمكن أن يريد للناس الحق والصواب وهو نفسه يبحث عن الضلال بحثاً، هو فقط سيقدِّم ضلالاً، وهنا سيقدِّم جبتاً وطاغوتاً سواءً داخلياً أو خارجياً.

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾(النساء:٥١) لاحِظ كيف هذه العبارة سيئة جداً؛ لأن هذه الكلمة قالوها للمشركين عندما سألهم الكافرون: من أهدى نحن أم محمد؟ كانوا يحاولون أن يستثيروهم على رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) قالوا: بل أنتم أهدى! وهم يعرفون هم بأن هؤلاء مشركون يعبدون أصناماً ويعرفون بأنهم ضالون وأن محمداً (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) أهدى منهم لو لم يكن إلاّ في هذه النقطة: في توحيده لله، ومع هذا يقولون للمشركين: أنتم أهدى من محمد. أليس هذا إيماناً بالجبت والطاغوت؟

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ لأن هذه قضية كبيرة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾(النساء:٥٢) من يلعنه الله، من يُنزل عليه لعنته فلن تجد له نصيراً، وفعلاً ألم يُضرَب الذين قالوا هذه؟ اليهود ضُرِبوا في أيام رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) هم ومن قالوا بأنهم أهدى من محمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) هذه تكشف لنا بأنهم لا يُراعون أيَّ شيء، أي: عندهم قاعدة يسمونها: (الغاية تبرر الوسيلة) عنده هدف مُعيَّن سيسلك أيَّ طريقة كيفما كانت ولو بأن يقول لمشركين هو يعرف أنهم ضالون ومشركون ولو بأن يقول: أنتم أهدى من محمد، أليس هذا يعني: بأنهم لا يُراعون أيَّ قيم على الإطلاق؟ لا يُراعون أيَّ قيم ولا مبادئ ولا أيَّ شيء في سبيل تحقيق أهدافهم، من يكونون على هذا النحو فلا تتوقع منهم أن يقدِّموا قيماً جيدة أن يأتوا ببدائل جيدة على الإطلاق.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾(النساء:٥٣) هم بخلاء دائماً، وعندما يكون لهم نصيب من الْمُلك، لو حصل لديهم سيطرة، لو حصل لهم دولة فلن يُعطوا الآخرين شيئاً منها. هذه ظهرت في تعاملهم مع الفلسطينيين، كم قد لعبوا بالفلسطينيين يَعِدُونهم بأنهم سيعطونهم حُكماً ذاتياً ودولة مستقلة وسلطة فلسطينية وهي كذب، إذاً ﴿لاَ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ والنقير: كأنه تلك الحبة الصغيرة التي تكون في ظَهْر نواة التمر، أقل قليل لا يعطونه، هذا واضح في تعاملهم مع الفلسطينيين، أليست قضية واضحة الآن أمام الناس؟ كم قد مضى عليهم وهم متفاوضون معهم ومتوِّهون لهم ومماطلون لهم؟ سنين وهم يَعِدُونهم مثلما تقول بماذا؟ بـ(خبز الشمس) لم يعطوهم شيئاً، لو أنهم يرجعون إلى القرآن الكريم لعرفوا بأن هؤلاء لا يمكن أن يعطونا شيئاً من جهة أنفسهم، إلاّ بأن نأخذ نحن حقنا، بأن نحرر أوطاننا منهم، وعندما لا تقوم رؤية الناس على هذا الأساس فستأتي أشياء عملية سيئة.

عندما كانت (منظمة التحرير الفلسطينية) تظن بأنه يمكن أن يحصلوا على دولة وسلطة هم والكثير من المثقفين في فلسطين أصبحوا ينظرون إلى من يجاهدون نظرة بأنهم أناس مغفلون أعاقوا طريق السلام أعاقوا إقامة دولة فلسطينية أعاقوا أن تتحقق لنا سلطة فلسطينية مستقلة، وفي الأخير يعملون ضد أصحابهم بعنف وقسوة يُخطِّئونهم ويقولون: (هذه العمليات التي تعملونها غلط، والمواجهة المسلحة غلط، أنتم تعيقون عملية إقامة دولة فلسطينية من جانب الإسرائيليين يمنحوننا على أساس التفاوض وأخذ ورد)! أي: لا تكون المسألة أن أحداً غلط فقط؛ لأن الغلط في الأخير يقوم عليه أعمال كثيرة خطأ.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَينَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَينَاهُم مُلْكًا عَظِيمًا﴾(النساء:٥٤) أي: هذه النفسية السابقة التي قال عنها: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ﴾(النساء:٤٤) ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾(النساء:٥١) هؤلاء هم هكذا: لو أن الْمُلك

لهم لن يؤتوا الناس نقيراً، بل هم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ بمعنى: بل هم يحسدون الناس ﴿عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾(النساء:٥٤) لأن هذا الدِّين: القرآن الكريم والرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) يُعتبَر نعمة كبيرة جداً؛ ولهذا الله يذكّر الناس بالقرآن بأنه نعمة كبيرة ويذكّرهم بالنبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) بأنه نعمة كبيرة ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران:١٦٤).

وأهل الكتاب هم يعرفون في تاريخهم قيمة الدِّين، قيمة الحق، كيف أنه يبني أمة تكون على أرقى مستوى تكون أقوى أمة، فأصبحوا حاسدين لأن الناس أوتوا شيئاً صحيحاً أوتوا شيئاً يُعتبَر بالنسبة لهم نعمة كبيرة، وفي نفس الوقت لماذا لم يكن النبي منهم – كما يقولون –؟! لماذا لم يأتِ النبي منهم؟! هذا المقولة هم يقولونها، لكن قد جاء أنبياء منهم ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾(المائدة:٧٠). هنا يُقدِّم المسألة: الْمُلك الفضل هو بيد الله وقد أعطاهم من قبل وهم الذين تخلوا، وهم الذين أصبحوا يتعاملون مع أنبياء الله بالتكذيب والقتل، ويتعاملون مع كتب الله بالتحريف، ويشترون بها الضلالة، ويشترون بها ثمناً قليلاً، فالفضل هو لله هو بيد الله، والْمُلك هو لله، والأمر والحكم هو لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾(النساء:٥٤، ٥٥) عندما يقول: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا﴾ أي: أن الْمُلك له والأمر والنهي والحكم له.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(النساء:٥٦) لاحِظ هنا كيف يتكرر الوعيد من جهة الله سبحانه وتعالى بالنسبة لـ(الكافرين، منافقين، فاسقين) داخل الآيات التي فيها بيان وفيها دعوة لهم إلى الهدى وفيها شرح لواقعهم وضلالهم أيضاً يأتي بالوعيد، أي: هذه قضية هامة، لا يكون فقط حديث عن أن الآخر موقفه ضلال وضلال...إلخ بل تُذكِّر أيضاً بعاقبة الضلال الذي هو عليه، هذه لها أثر نفسي كبير.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾(النساء:٥٦) وهنا صرح بعبارة: ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ مثلما قال هناك: ﴿فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَن صَدَّ عَنْهُ﴾(النساء:٥٥) لأن الصدّ عنه كفر بآيات الله ﴿سَوفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيرَهَا﴾ نعوذ بالله ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾(النساء:٥٦، ٥٧) لاحِظ قيمة الترغيب، مع أن يأتي ترهيب على هذا النحو الكبير يأتي بترغيب؛ لأنه هنا يكون للترغيب موقعه في النفس بعد أن يذكر بأن الكافرين هكذا عذابهم: ﴿سَوفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيرَهَا﴾ يأتي بعدها بما وعد به المؤمنين، هنا سيكون من خلال المقارنة ما بين ما وُعِد به الكافرون وما وُعِد به المؤمنون يصبح للوعد الإلهي الذي هو الجنة أثر كبير في نفسك وقيمة تتجلى من خلال المقارنة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾.

ودائماً يذكر عندما يأتي بالحديث عن الجنة وعن المؤمنين وما وعدوا به يذكر أشياء أحياناً يذكر مساكن، أحياناً يذكر أزواجاً، أحياناً متكئين على الأرائك، بعبارات كثيرة، قد يكون هنا مسألة: أزواج مطهرة، أن اليهود الذين ذكر الله بأنهم أعداء، وأعداء يعملون كل شيء في سبيل أن يحققوا أهدافهم، أنهم قد لا يتحاشون أن يستخدموا بناتهم ونساءهم، مثلما يحصل، وهذا ما يحصل من قصص مع عملائهم، يحصل إغراءات بما فيها النساء. هي تحذير للناس المؤمنين وأن يفهم الإنسان بأنه – أن يُقدِّم لك اليهود قحبة من القحاب قد تكون تشتغل معك وتشتغل مع غيرك، ليست طاهرة وليست شيئاً بالنسبة لنساء الجنة – أن يكون حريصاً أن يواجههم وأن يبتعد عن ضلالهم ويبتعد عن خداعهم ويبتعد عن إغراءاتهم مهما كانت، وهناك الثواب العظيم عند الله: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ و﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ لا فيها (إيدز) ولا هي (قحبة) كل مرَّة مع عميل، حور عين كما وصف في كثير من الآيات: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيضٌ مَكْنُونٌ﴾(الصافات:٤٩) ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾(الرحمن:٥٨) ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾(النساء:٥٧).

إذا كان قد يوفر لك غرفة في فندق، عندما يقرأ أحد عن العملاء يستأجرون له – أحياناً – شقة في فندق راقٍ ويعطونه قحبة من القحاب وهنا يشعر وكأنه في ظِل ظليل! لا، تجد هناك جهنم؛ لأنك عندما تكون على هذا النحو معناه أنك كافر بآيات الله، الآيات التي تبيِّن لك هذه الفئة في ضلالها، فيما تريده للبشر، في خبثها في تعاملها مع الله وتعاملها مع عباده، هنا سيكون مصيرك مثلما قال: ﴿سَوفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾(النساء:٥٦) ماذا يعني:

نصليهم؟ مقابل أيِّ فراش من الذي يمكن أن يعطوك ترتاح به، نصليهم، أي: مباشرة تُسحَب على الجمر لا يوجد أيُّ وقاية بينك وبينها، هذا معنى الصلي: يشتوي، نصليهم مباشرة على الجمر.

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾(النساء:٥٦) وأنك عندما تواجههم وعندما تكون مؤمناً بآيات الله يحصل هذا الوعد الإلهي العظيم: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾ أي: قيمة الحديث عن الجنة والناروعن الوعيد الإلهي والوعد الإلهي، عن الترغيب والترهيب وهذه الأشياء التي هي أرقى شيء في ماذا؟ في مجال النعيم وأشد شيء في مجال العذاب والبطش، كلها بيد الله، فيكون الإنسان خائفاً فلا ينجذب لا لترهيب ولا لترغيب من الآخرين؛ لأن ما لدى الآخرين من ترغيب لا يساوي هذه ولا يدانيها، وما لديهم من ترهيب لا يقارب مما لدى الله سبحانه وتعالى؛ لأن من قالوا للكافرين: ﴿هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾(النساء:٥٠) وآمنوا بالجبت والطاغوت، سيقدمون بناتهم، عندهم (الغاية تبرر الوسيلة) وهذا حاصل في تعاملهم: يصدِّرون قحاباً مليئاتٍ بالإيدز مثلما قيل: إنهم يعملون لعملائهم وللشباب من المصريين! هناك في الجنة أزواج مطهرة ليس فيها شيء من هذه الأمراض الخطيرة وليست مثل هؤلاء النساء (نساء العملاء) التي تكون كل مرَّة مع واحد ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾(الصافات:٤٨) ليس أمامها إلاّ أنت ولا تنظر إلاّ إليك.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَينَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(النساء:٥٨) هذا توجيه بشكل عام بالنسبة للأمانة بشكل عام، والأمانة قضية هامة جداً، الأمانة أن تكون قائمة فيما بين الناس، أداء الأمانة، التعامل بالأمانة ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَينَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ هذا شيء عظيم يعظكم الله به، نِعمَ ما يعظكم به ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ سيعلم من يحكم بغير العدل ويعلم من يخون الأمانة ومن يتعامل على غير الأمانة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾(النساء:٥٩) أحسن مآلاً، أحسن عاقبة، أحسن واقعاً هنا في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة، لاحِظ هنا في هذه السورة التي فيها كثير من التوجيهات كثير من التشريعات فيها أمر متكرر بطاعة الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) بشكل كبير في (سورة النساء) كم تجد من الآيات: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ لأن الكثير من هذه التشريعات والكثير من التوجيهات هنا عملية، للرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) دور كبير فيها في المجال التنفيذي في المجال التوجيهي في أشياء كثيرة جداً في مجال التبيين، هنا يأمر بطاعته وطاعة رسوله ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

ثم تلاحِظ هنا، عندما يقولون: إن دور الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) هو مُبيِّن، ويقدِّمون لك كلمة (يبيِّن) وكأنه يُفسِّر، أن يقول لك: الصلاة هي خمس: الفجر ركعتان، والظهر أربع، والعصر أربع...إلخ، يوجد هنا أشياء كثيرة أخرى، أشياء كثيرة جداً في موضوع أن ينفّذها؛ لأن هناك توجيهات هي تُعتبَر توجيهات عامة في إنزالها على تفصيلاتها وموارِدها قضية يقوم بها الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) أو من يقوم مقامه؛ ولهذا قال: ﴿وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾(النساء:٥٩).

لكن ليست قضية تنفيذية بحتة، قد تجد أن الكثير من القوانين قد أصبحت واضحة عبارة عن مواد واضحة لا يقومون بها ولا يطبقونها وقد أصبحت قضايا واضحة سواءً فقهية أو قانونية، أمَّا هنا فقضية الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) بأن يفهم القضية ويفهم الواقع ويعرف علاقة هذا الواقع بهذا التوجيه القرآني في هذا المقام أو هذا المقام قضية دقيقة، أي: ليست فقط مجرد تنفيذ أشياء قد صارت موجودة حرفياً بالتفصيل، وهذا مثلما قلنا بالأمس إنه – فعلاً – عندما تقرأ القرآن الكريم تجد أنه بهذا الشكل: أن دين الله سبحانه وتعالى عبارة عن مسيرة شاملة وواسعة تستوعب الحياة كلها خصوصاً فيما يشكّل ضمانة، أن يكون هذا الدِّين على هذا النحو ويكون إنزاله تعبيراً عن ماذا؟ عن إقامة قسط عن الحكم بين الناس بالعدل، عن تربية الناس على أساس ما يريد الله أن يكونوا عليه، أنها قضية تحتاج إلى من؟ إلى الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ومن يقوم مقامه، من يقوم مقامه قضية أوسع بكثير بكثير من مسألة سلطة تنفيذية – كما يسمونها – سلطة تنفيذية سواءً ما هو معروف الآن في أنظمة الدول أو ما قدِّم حتى داخل كتب الفقه بالنسبة لولاية الأمر، جعلوا ولاية الأمر معناها ماذا؟ مجرد سلطة تنفيذية، السلطة التنفيذية معناها: الأشياء التي حُدِّدت هناك قد صارت مقننة واضحة مفصلة، بنودها واضحة، لا، هنا قضية أوسع من هذه بكثير.

فلهذا أمر سبحانه وتعالى بطاعته وطاعة رسوله وطاعة أولي الأمر منكم، أولو الأمر ليست قضية دعوة كل

واحد يدَّعي أنه هو مِن أولي الأمر، أولو الأمر قضية مرتبطة هنا بالرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) الرسول مرتبط بالله سبحانه وتعالى، وقضية لا تأتي عن طريق انتخابات ولا عن طريق شورى ولا عن أيِّ طريق مما يُقدَّم. بل قضية اللهُ هو الذي يتولاها هو، هو الذي اصطفى الرسول، هو الذي سيصطفي أولي أمر، لم تُترَك القضية لكل من يدَّعي، يوجَد سبعة وخمسون حاكماً في البلاد الإسلامية، وكل واحد يأخذ هذه الآية له، وتجدهم سواءً كانوا فرادى أو مجتمعين لا يقيمون أيَّ أمر، هل أقاموا أمر الأمة الآن؟ مع أن لديهم سلطة، لديهم جنوداً، لديهم عتاداً عسكرياً، لديهم إمكانيات كبيرة، لكن القضية لا تنتهي عند هذه، من يعرف كيف يعمل، من يعرف كيف يُنزِّل هذا القرآن في واقع الأمة، من يبني الأمة على أساس هدى الله في القرآن الكريم.

تجد كل واحد يدَّعي أنه تجب طاعته على أساس: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ﴾ لكن وجدناهم لا يقيمون الأشياء الواضحة ولا أعطوا الناس شيئاً لا وهم مجتمعون في القمم (قمة عربية أو قمة إسلامية) ولا وهم فرادى (كل واحد في بلاده) هذا من التلاعب بكتاب الله حقيقةً (لا يكن الواحد راكباً على جَمَلَين) يكفيهم الشرعية التي يدَّعونها، أليسوا يدَّعون شرعية ديمقراطية كما في البلدان الديمقراطية أو شرعية وراثة حكم كما في بلدان أخرى: سلطنات أو ملكية، لا، ما زال يريد أن يجعل لنفسه شرعية دينية وشرعية ديمقراطية! إذا كنتَ تريد شرعية دينية فالشرعية الدِّينية لا تأتي وفق رؤيتي ولا وفق رؤيتك، ارجع إلى القرآن، نرجع إلى القرآن؛ ولهذا قال بعد: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾(النساء:٥٩) إذا كنا متنازعين في: ما هي الشرعية الدِّينية؟ ومن هو الذي يقال له: (ولي أمر) على أساس دين الله فيكون امتداداً لرسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)؟ فنرجع إلى القرآن، وإلاّ فيكفيك الشرعية الديمقراطية.

يجب أن نعرف أن الذي يشكّل ضمانة للدِّين أن يسير بشكل صحيح يحتاج إلى ورثة لكتاب الله، وألاّ تتحطم الأشياء وينزل الدِّين بشكل معكوس ويوجِّه الناس به توجيهاً تضليلياً، والعجيب أنهم ما زالوا يحاولون أن يدَّعوا هذه، أو يحاولون حث الناس على طاعة ولي الأمر مع أنهم يعرفون هم أن أمريكا الآن هي المتسلطة وهي النافذة مثلما قلنا سابقاً، قلنا: إنزال القضية هذه الآن، ومع أنه معلوم في الأنظمة العربية القائمة أنها غير محتاجة إلى ما يسمى بشرعية دينية، هي لا تقوم على هذه، أليست قائمة على أساس ديمقراطية أو وراثة مُلك؟ فلماذا الآن يوجد حركة حول طاعة ولي الأمر، طاعة ولي الأمر، طاعة ولي الأمر، الآن؟ ما قد احتاج إليها بعضهم منذ سنين، إلاّ لأنها مرحلة الأمريكيون يقدِّمون أنفسهم عبارة عن محررين وأنهم يزيحون الظلم ويزيحون الطغيان ويزيحون الجبروت، أليسوا يعملون هكذا؟ فيحاولون أن يشغلوا الناس بأن الدِّين هكذا؟ (وكل حاكم من حكامكم الذين أنتم تكرهونهم وهم يظلمونكم وهم كذا، دينكم يأمركم بأن تطيعوهم) من أجل أن تَقبَل الأمريكي وتكفر بدينك أنت عندما يُقدَّم لك دينك بأنه يأمرك بطاعة إنسان أنت تعتبره ظالِماً ويظلمك، والأمريكي يُقدِّم نفسه لك عبارة عن مُحرِّر لك من الظلم والطغيان، كيف سيكون موقفك أنت؟ ألستَ ستَعتبِر الأمريكي وستَعتبِر الأطروحات الأمريكية أفضل من الإسلام؟!

هذا هو الهدف من إنزالها الآن، مثلما قلنا منذ أن بدؤوا ينزلون مَلازِم من وزارة الأوقاف والإرشاد على أساس تعليم للخطباء والمرشدين، قلنا: هؤلاء ليسوا بحاجة إلى هذا المنطق، وهذا المنطق لا يقبله حتى الأمريكيون أنفسهم لا يقبله حتى الأوروبيون، لا يقبله لا يهودي ولا نصراني، أن يقول: (أن تطيع الحاكم وإن قَصَمَ ظهرك وإن نهب مالك) هل هذا مقبول في الديمقراطية؟! هل هو مقبول عند أيِّ أمة من الأمم؟ ليس مقبولاً، فلماذا ينزلونه باسم الدِّين؟! ليشوِّهوا الدِّين بهذا: (أطع الحاكم وإن قصم ظهرك) (سيكون بعدي أئمة لا يهتدون بهديي ولا يستنون بسنتي...) هكذا يروون عن رسول الله كذباً عليه (لا يهتدون بهديي ولا يستنون بسنتي، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أطع الأمير وإن قصم ظهرك)! وهناك يقومون بمظاهرات ويعملون ثورات إذا كان الحاكم على هذا النحو.

إذاً فهذه عملية تشويه من جانب اليهود أنفسهم من جانب الأمريكيين ليشوهوا الدِّين حتى يرى الناس أن الأمريكيين أفضل، ومن يتأمل فالقضية واضحة، أليسوا يُقدِّمون تحريراً، إزالة الأنظمة الطاغوتية؟ أليسوا يقولون هكذا؟ ويقدمون لك منطقاً آخر (أطع الحاكم وإن قصم ظهرك وإن، وإن...إلخ) هل هذا مقبول ديمقراطياً؟ ليس مقبولاً ديمقراطياً، معلوم أنه ليس مقبولاً في الديمقراطية، فهل يُقبَل في دين الله؟ إذا كان البشر أنفسهم لا يقبلون هم أن يُشرِّعوا هذا الشيء، فيأتي نظام يُوجِب على الشعب أن يُطيعه وإن قصم ظهره وإن أخذ ماله، فكيف نجيزه على الله؟! لا يوجد أيُّ نظام يجيز هذا ويقول للناس: إن عليهم أن يؤمنوا ويسمعوا

ويطيعوا وإن كان تعامله على هذا النحو، أي: أن البشر أنفسهم يترفعون عن هذه في أنظمتهم في تقنينهم، أمَّا مَن كذبوا على الله فيجيزون ذلك على الله سبحانه وتعالى؛ ولهذا قال في آية سابقاً: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾(النساء:٥٠).

إذاً فهذه الآية هي من الآيات التي يظلمونها فعلاً والتي يقدِّمون لها معاني تُعتبَر افتراءً على الله وفي نفس الوقت هم الآن يقدِّمونها بالشكل الذي ماذا؟ يجعلك تقبل الأمريكي! أولو الأمر أنفسهم الذين يسمون أنفسهم أولي الأمر، عندما اجتمعوا في (ماليزيا) واجتمعوا قبل في (الدوحة) واجتمعوا في (بيروت) واجتمعوا في أماكن أخرى هل عملوا شيئاً للأمة، هل قدَّموا شيئاً؟ ولا شيء؛ لأنه لم يعد لهم أمر، نحن قلنا في (مَلْزَمَة) سابقة في (الثقافة القرآنية): الله قال هنا: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾(النساء:٥٩) نتحدى أيَّ أحد أن يستطيع أن يبرهن أنه لا يزال من هذه الأمة – فعلاً – يمثل هذه الأمة ويقف الموقف الذي تريده هذه الأمة، ويتحرك الحركة التي تكون لصالح هذه الأمة، كلهم الآن إملاءات أمريكية ما بين من يدَّعي بأنها ضغوط أو عمالة، أليسوا كلهم هناك؟

إذاً لم تعد موجودة كلمة: ﴿مِنكُم﴾ لم تعد صادقة عليهم كلهم، حقيقة ﴿مِنكُم﴾ هذه كانت تُستعمَل أيام الخلفاء العباسيين والأمويين وكانت تَنطَلي على الناس؛ لأن الحاكم كان لا يزال منهم ويرونه منهم لم يكن مثل الحاكم الآن، أمَّا الآن فلم يعد هناك ولا ﴿مِنكُم﴾ لا هي صادقة كلمة ﴿أُولِي الأَمْرِ﴾ ولا صادقة ﴿مِنكُم﴾ لم يعد يأتي حتى على الأقل يشرح للناس واقعه، حتى يقول: (هذه ضغوط، وأنتم تفهمون الأمور هي هكذا تمشي علينا، ونحاول جميعاً كيف نجعل مَخرَجاً) تأتي ضغوط أمريكية تأتي إملاءات أمريكية يُقدِّمها للناس باعتبارها سياسة حكيمة! أليس هذا هو الذي يحصل: سياسة حكيمة، وخطط هامة، وأشياء من هذه؟

إذاً لم تعد كلمة ﴿مِنكُم﴾ موجودة، لم تعد صادقة عليهم جميعاً، هنا في كلمة ﴿وَأُولِي الأَمْرِ﴾ عندما ترى هذه السورة مليئة بالتشريعات، مليئة بالتوجيهات، مليئة بأشياء هامة جداً، وأنت ترى مَن يدَّعون بأنهم أولو أمر لا يعملون بظاهر القرآن بالنص الصريح فيه فما بالك بأن يَعرِف من داخله كيف يُسيِّر الأمة، وهنا جاء بآيات كثيرة حول موضوع بني إسرائيل، يُبيِّن كيف هم، تجد مواقفهم الآن مواقف من لا يقرأ هذه الآية، يقول عن بني إسرائيل: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾(النساء:٥٣) يذكر أيضاً بأنهم ﴿يُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾(النساء:٤٤) يذكر أشياء كثيرة تجد مواقفهم معهم مواقف من لا يعطي لهذه الآيات قيمتها وهي صريحة، مع أن هذه الآية هنا توحي إضافة إلى صريح القرآن الكريم فيما يتعلق بعمقه فيما يتعلق بفهمه فيما يتعلق بالاهتداء بأشياء كثيرة داخله لإنزالها على الأمة لتربية الأمة على أساسها لبناء الأمة على أساسها.

﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيءٍ﴾ لأن هدى الله يقوم على أساس ألاّ يكون هناك اختلاف، نظام لا يكون هناك اختلاف نهائياً ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ﴾ طرأ تنازع ﴿فِي شَيءٍ﴾ فمن أول وهلة ردوا الموضوع إلى الله ورسوله، أقفلوا الباب تماماً ﴿فِي شَيءٍ فَرُدُّوهُ﴾ أي: ردوا أمره ردوا شأنه ﴿إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾(النساء:٥٩) أي: لستم بحاجة إلى أن تتنازعوا في شيء، لكن لو طرأ تنازع فردوا القضية بكلها ﴿إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ لأن الحكم له سبحانه وتعالى، وتجد أنه يهدي، وبالنسبة للرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) أي: ليست القضية على ما تُقدَّم بمعنى أن أرد أنا، عندما نختلف أنا وأنت في شيء نأتي نرده إلى الكتاب ونرده إلى السُّنة، أليس الموضوع يُقدَّم هكذا، الرد إلى الكتاب؟ ثم آتي أنا أطَّلع على الكتاب وأحاول أن أوقلم الكتاب معي، وأنت مِن عندك كذلك، والآخر مِن عنده كذلك، فيما يتعلق بالكتاب، وفيما يتعلق بالسنة، أليسوا يعملون هكذا؟

وكلهم يدَّعون أنهم يعملون هذه، ولا يزال الاختلاف قائماً؛ لأن عملية الرد ليست على هذا النحو الذي يقدِّمونه هم، كل واحد مِن عنده، وكل واحد يدَّعي أنه يردّ إلى الله والرسول، يردّ إلى الكتاب والسُّنة، والاختلاف قائم؛ لأن هذه قدِّمت بأنها وسيلة تحسم الاختلاف تماماً، فلو أن الطريقة التي يعملونها في الرد على مدى هذه القرون لو أن الطريقة الصحيحة هي التي يقومون بها لَمَا كان هناك اختلاف.

ألم يقدِّمها هنا على أساس أنها تحسم الخلاف؟ فلماذا نجدهم مختلفين مع دعاوى أنهم يَردُّون إلى الله والرسول إلاّ أن عملية الرد ليست صحيحة وليست على الأساس الصحيح؟ ولهذا جاءت العبارة بشكل يوحي بالتقليل، وكقضية فيما لو حصل تنازع فاتركوا الموضوع بكله لله والرسول، ويأتي توكيد على هذه القضية بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ﴾(النساء:٥٩) تؤمنون بالله وتعرفون: أن الله بكل شيء عليم، وأنه حيٌّ قيوم، وأنه لا يأتي من جانبه تقصير على الإطلاق في موضوع الهداية، وتخافون منه، وتؤمنون باليوم الآخر ﴿ذَلِكَ خَيرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾(النساء:٥٩) أحسن عاقبة من أن تظَلوا متنازعين ومختلفين.

هل هذه الآية مفهومة؟ لأنها من الآيات التي يشتغلون فيها، هذه الآيات التي يأتي فيها شغل، وتلمس يداً يهودية في الموضوع مثل: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة:١٤٣) ومثل: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦) ومثل: ﴿وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾(النساء:٥٩) أليسوا شغالين في هذه الآيات؟

وتجد أن هنا ما يُبيِّن أن الدِّين قائم على أساس أمة واحدة وقيادة واحدة، عندما يقول: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيءٍ﴾(النساء:٥٩) فعندما تأتي إلى سبعة وخمسين زعيماً وكل واحد يريد أن يُشغّل هذه الآية له، وجاء شخص آخر يعمل انقلاباً عليه وضربه وسماه طاغية وعدو الله...إلخ، وقاموا يُشغّلون الآية له، وهكذا، أليس هذا تلاعباً بالدِّين؟ مع أن الإسلام قُدِّم على أساس أن تكون هذه الأمة أمة واحدة.

ثم عندما تتأمل أيضاً الدعاوى عندما يكون كل زعيم يدَّعي في بلاده أو يدَّعون له سواءً مثقفين أو علماء، أليسوا في نفس الوقت يشكون من التفرق؟ حَسَناً إذا كان الله هو الذي أوجب على كل شعب أن يطيع الشخص الذي يحكمه، والكل يشهدون بأن هذا تفرُّق وأنه سبب ضعف الأمة، هل يمكن أن يكون هذا من دين الله؟ بأن تجد كل زعيم يقول: العرب يجب أن يتوحدوا، وأحد الزعماء قال: (المفروض أن يكون هناك زعيم عربي واحد، ونحن مستعدون أن نتنازل له) ألم يقل هكذا؟ إذاً فهذا ينقض دعوى كل شخص في بلاده، أي: الذي ينتهي في الأخير إلى أن الله أوجب على سبعة وخمسين قُطْراً أن يطيعوا - كل منهم - الواحد الذي عندهم، وهكذا، ترى سبعة وخمسين شخصاً وإذا بالسبعة والخمسين كل واحد يشكو من التفرق الذي هم عليه، وكأن الله هو الذي شرَّع التفرُّق الذي هم عليه وأمر الناس أن يطيعوهم على التفرق الذي هم عليه، وهم كلهم يصيحون من التفرق شعوباً وزعماء، أليس هذا - لو أنه صحيح - يُعتبَر اختلافاً في شرع الله، ويُعتبَر تدبيراً غير حكيم لو أنه من عند الله؟

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾(النساء:٦٠، ٦١) كشْف شامل لمن يدَّعون من اليهود الذين يقولون آمنا وللمنافقين؛ لأنه يتبين كذبهم في أشياء كثيرة، منها هذا الشيء: التحاكم إلى الله ورسوله، الرضا بحكم الله، التسليم بحكم رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) وما يقضي به فيما بينهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ سماه زعماً، أي: ليست قضية حقيقية، لكن هم يقولون هكذا، حَسَناً هم يعرفون أن مقتضى الإيمان بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك أن يكونوا كافرين بالجِبْت والطاغوت، لا يقول إنه مؤمن بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ويذهب إلى الجبت والطاغوت يتحاكم إليهم. ﴿إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ﴾ يُبعدون الآخرين عنك، ويبتعدون عنك ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾(النساء:٦١)

﴿فَكَيفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوفِيقًا﴾(النساء:٦٢) لأن المنافقين هكذا: يحلفون أيماناً بأنهم لم يريدوا إلاّ الإحسان ولم يريدوا إلاّ التوفيق بين المتخاصمين وأشياء من هذه، أن هذا من مظاهر أنهم غير صادقين فيما يدَّعونه من أنهم مؤمنون بك، مؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، هذه القضية تكشف ابتعادهم عن حكمك، ابتعادهم عنك، وبحثهم عن الطاغوت يتحاكمون إليه.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ هو يعلم ما في قلوبهم ويُبيِّن لنا الأشياء التي تكشف الكثير مما في قلوبهم ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَولاً بَلِيغًا * وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(النساء:٦٣، ٦٤) هذه القضية أساسية ﴿لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ ليطاع فيكون حكمه هو الذي يسلِّم له الناس، بل هو الذي يتولى الحكم فيما بين الناس، هو الذي يُبيِّن للناس، هو الذي يرشد الناس ﴿لِيُطَاعَ﴾ بكل ما تعنيه الكلمة، وليس عبارة عن خطيب وواعظ فقط! بل ليطاع فيما أمر ونهى وفيما قضى به.

﴿وَلَو أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾(النساء:٦٤) فعلاً قد ظلموا أنفسهم بهذا الشيء عندما يتحاكمون إلى الطاغوت ويصدون عنك، لكن بالإمكان إذا كانوا يريدون أن يغفر الله لهم أن يرجعوا إليك.

﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَينَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(النساء:٦٥) وإلاّ فلا يُعتبرون مؤمنين، تُعتبَر فقط مجرد دعوى وزعم كما قال سابقاً، هذه تؤكد: أن مسيرة الدِّين هي مسيرة عملية، وأن الأمر كله لله لا يُقدَّم موضوع الرسل وموضوع الهدى وكأنهم فقط يَعِظون والآخرون

الذين يكونون في السلطة التنفيذية يحكمون! لا، هي مهمة واحدة يقدِّمها، مهمة واحدة. هذه النظرية التي يسمونها: (فصل الدِّين عن الدولة) نظرية العلمانيين: (هناك واعظون مرشدون ومدرسون، وهناك حكام آخرون ولا علاقة للدِّين بالحياة).

البعض يحاول أن يُقدِّم الآيات: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيهِم بِمُصَيطِرٍ﴾(الغاشية:٢١،٢٢) ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾(المائدة:٩٩) يقدِّمها على هذا النحو! لكن لا، الآية أن تكون على هذا النحو لها أثر كبير في مقامها، لا تعني: بأنه عبارة عن واعظ فقط، وعبارة عن مرشد فقط (ومن حَكَم حَكَم، ومن تولى الأمر تولى) لا، فهذه ترد على من يحاول أن يُقدِّم مفهوماً خاطئاً حول الآيات الأخرى؛ لأن الله يقول في أكثر من آية: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾(النساء:٥٩) ويقول هنا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(النساء:٦٤) ويأتي بهذه الآية في إطار قضية ماذا؟ التحاكم، التقاضي، الرجوع إليه: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَينَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيتَ﴾(النساء:٦٥) من داخِل لا يكون في نفسه يَعتبِر أن النبي ظلَمه أو تجاوز عليه في الحكم، قال: لا يكون في أنفسهم حرج ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: قبول في الواقع في نفس ما يقضي به في القضية وتسليم من الداخل، تسليم من داخل وخارج.

﴿وَلَو أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَو أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾(النساء:٦٦) لأن هذه القضية قد تكون ربما قريبة من الأشياء التي قد تكون التوبة فيها قتل النفس، مثلما حصل عند بني إسرائيل، أي: الله تجاوز عنهم إذاً فليقبلوا ما يوعظون به ﴿وَلَو أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ لأنه كيف يكون عندك تقدير واحتمال أن النبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ممكن أن يقضي بباطل ممكن أن يظلمك في حكم يحكم به؟! ﴿وَلَو أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ تحت كلمة (وعظ) أليست تُقدَّم عندنا عبارة عن الأشياء التي تتحدث فيها، والتي لها علاقة بالدِّين بشكل عام، هنا يسميه وعظاً، هذا هو الوعظ الإلهي مثلما ذكر عن لقمان عندما قال لولده: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾(لقمان:١٣) موعظة، كيف الموعظة هناك؟ قال له: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾(لقمان:١٧) كلمة (موعظة) قد أصبحت عندنا: قد تغيَّر مفهومها، الوعظ: الحديث عن موضوع الجنة والنار، وهكذا، الجنة كذا كذا، والنار كذا كذا، وأوامر عامة، توجيهات عامة هكذا، هذه يسمونها موعظة! هذا الوعظ الإلهي؛ ولهذا قال في القرآن بكله أنه موعظة: ﴿وَهُدىً وَمَوعِظَةٌ﴾(آل عمران:١٣٨).

﴿وَلَو أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾(النساء:٦٦) تثبيتاً لأنفسهم وتثبيتاً للإيمان في أنفسهم ﴿وَإِذاً لآتَينَاهُم مِن لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَينَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾(النساء:٦٧-٦٩) لاحِظ كم هنا من كلمة طاعة رسول، طاعة رسول، أي: موضوع (سورة النساء) موضوع تجد فيه أشياء كثيرة كثير منها في إنزالها على الواقع ومعرفة علاقة الواقع بها مرتبطة بالرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم).

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾(النساء:٦٩) هؤلاء هم الرفقاء الصالحون الذين يجب أن يتجه إليهم المنافقون، ويتخلون عن اليهود، المنافقون تكون أنفسهم قريبة لليهود، أفضل لهم أن يؤمنوا ويرجعوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ويستغفروا ويفعلوا ما يُوعَظون به؛ ليكون رفقاؤهم هؤلاء الرفقاء الصالحين، وليس رفقاؤهم أولئك السيئين. الإنسان الذي يسير على هدى الله يكون رفقاؤه هؤلاء الرفقاء الصالحين، وإذا ابتعد الإنسان عن دين الله يكون رفقاؤه من الشيطان وتحت كم مِن مجرم.

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾(النساء:٧٠) هذا فضل عظيم على الإنسان أن يكون في طريق تكون غايتها أن يكون رفيقاً لهؤلاء العظماء: ﴿النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾(النساء:٧١) قدَّم في الآيات السابقة: أن هناك أعداء، ألم يُقدِّم أن هناك أعداء؟ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾(النساء:٤٥) وذكر ما يريد هؤلاء الأعداء، وذكر أنفسهم كيف هي ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ لكن حذركم هنا كيف هو؟ عمل ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ انفروا تحركوا ثبَاتٍ: مجموعات ﴿أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ هذا توجيه بشكل عام أمام الأعداء: كافرين، أو يهوداً، أو نصارى، لم تأتِ هنا ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ على ما يُقدَّم من كثير من الناس: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ معناه: (اقعدْ، ولا دَخْل لك في شيء، وابتعدْ عن هذه الأشياء، واقعدْ من بيتك إلى مسجدك، أو من بيتك إلى عملك) أليسوا يقولون هكذا؟

﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أخذ الحذر هنا – على أساس أن العدوّ لا يضرك، العدو لا يقهرك ولا يظلمك ولا يستعبدك – هو:

أن تتحركوا في مواجهته ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ كلمة (انفروا) تعني ماذا؟ المسارعة، هناك يوجد أيضاً كلمة أخرى ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَيُبَطِّئَنَّ﴾(النساء:٧٢) الناس يجب أن يكونوا حذرين ويكونوا على جاهزية قابلة لأن ينطلقوا في مواقفهم بسرعة.

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَيُبَطِّئَنَّ﴾ يتثاقل ويُثبِّط آخرين، ويتثاقل بآخرين ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾(النساء:٧٢) لاحِظ القرآن الكريم أن الله يُشخّص فيه الناس، وفئات الناس، تقريباً كل نفسية قد يكون عليها أحد من الناس يشخصها هنا في القرآن. ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَيُبَطِّئَنَّ﴾ على الرغم من التوجيه الذي يذكر فيه بأن هذا هو أخذ الحذر، ما معنى أخذ الحذر؟ ألاّ يقهرك العدو ويظلمك...إلخ، والتوجيه بالمسارعة ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾(النساء:٧١) هناك في المقابل نفسيات أخرى أشخاص آخرون يبطئون، هم يتباطؤون ويتثاقلون ويحاولون في الآخرين أن يتباطؤوا ويتثاقلوا ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَيُبَطِّئَنَّ﴾ وقد يَعتبِر أن موقفه حكيم، وأنه كان الرؤية الصحيحة ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ إذاً كان رأياً حكيماً، واتضح له أن رؤيته كانت في محلها.

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَمْ تَكُن بَينَكُمْ وَبَينَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوزًا عَظِيمًا﴾(النساء:٧٣) وما الذي يمنعك أن تكون معهم؟ ألم يكن بإمكانه أن يتحرك معهم، أن يميل إلى جانبهم؟ باب أن يميل إلى جانبهم ويتحرك معهم مفتوح ﴿كَأَن لَمْ تَكُن بَينَكُمْ وَبَينَهُ مَوَدَّةٌ﴾ يحصل لديه ندم ﴿يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوزًا عَظِيمًا﴾(النساء:٧٣) هنا يُقدَّم خاسراً في ماذا؟ في الموضوع بكل اعتباراته، من عندهم هذه الفكرة: التباطؤ والتثاقل؛ لأنه هنا عندما يقول: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾(النساء:٧٢) أليس هو يَعتبِر نفسه وكأنه ناجح، وكأنه موقف صحيح؟ انظر الآيات الأخرى التي تهدد من يكون على هذا النحو تجده خاسراً في موقفه هذا، وعندما يحصل نصر ويحصل فتح ويحصل كما قال هنا: ﴿فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أيضاً يرى نفسه خاسراً ﴿يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوزًا عَظِيمًا﴾(النساء:٧٣).

الموقف الصحيح هو موقف من يتحركون في سبيل الله، مثلما سيأتي في آخر الآية عندما قال: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(النساء:٧٤) هذا هو الموقف الذي أنت تُعتبَر فيه ناجحاً، في كل الحالات، سواءً حصلتْ غلبة على العدو (نصر وفتح) أو قُتِلتَ في سبيل الله، ألم يُقدِّم القضية هنا من الجهتين؟ كما قدَّم قضية النوعية الأولى: مبطئين من الجهتين، هم خاسرون في الجهتين.

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا بِالآخِرَةِ﴾(النساء:٧٤) فلا يلتفتون للآخرين، المبطئين، ولا الذي يُقدِّم نفسه في الأخير في موقف من المواقف بقوله: (لاحِظوا قد قلنا لكم: إن الرأي كان كذا، وأحسن كذا) وأشياء من هذه، هذه قد تحصل عندما يأتي أمر على هذا النحو: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيها مما يعني ماذا؟ لا تلتفوا لهذه النوعية، وفي الأخير يُقدِّم نفسه أحياناً وكأنه حكيم؛ لأنه لم يصبْه شيء في نفس ذلك الموقف بالذات، هذا تراه فيما بعد يأتيهم الله من حيث لم يحتسبوا.

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا بِالآخِرَةِ﴾ لأنها كلها حياة والحياة الآخرة هي أعظم من الحياة الدنيا ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(النساء:٧٤) فهو يوجِّه إلى ما هو خير للإنسان سواءً تحقق فتح على يده أو قُتِل في سبيل الله.

﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾(النساء:٧٥) حث آخر، كم هنا؟ في ثلاث آيات: ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾(النساء:٧١) ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا بِالآخِرَةِ﴾(النساء:٧٤).

﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ في سبيل إنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِن هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾(النساء:٧٥) وهكذا يجب أن يكون المستضعفون، أي: أنهم مستضعفون عارفون لوضعيتهم غير راضين بوضعيتهم يتمنون أن لديهم ما يُمَكِّنُهُمْ من أن يعملوا في مواجهة الوضع الذي هم فيه؛ لهذا قال عنهم: ﴿وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ ليسوا مستضعفين من الذين ليس لهم دَخْل.

لاحِظ هنا الفارق حتى يعرف الناس يقيِّمون أنفسهم كمستضعفين، مستضعفون لا يبالون بالوضع الذي هم فيه ولا يَعتبِرون أنفسهم مستائين من الوضع الذي هم فيه، ولا يتمنون أن لديهم ماذا؟ وليًّا ونصيراً يتحركون

معه، الذين هم على هذا النحو: (ليس لهم دَخْل) هؤلاء قد يكونون ممن يُضرَبون، لكن المستضعفين الذين هم مظنة أن يُنقَذوا أو نقول يهمُّ كتاب الله أمرهم، هم هؤلاء المستضعفون، من هذه النوعية: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ...﴾ وليسوا المستضعفين من النوعية الذين بعضهم ما زال يعارض عملك لمصلحة العدو، معارضته كلها لصالح العدو الذي ماذا؟ يستضعفه ويقهره ومتجه لإهانته وهتك عرضه! لأن هذه الآية هي في مجملها تكشف لك: مشاعرهم، ورؤيتهم، تذمرهم من الوضعية التي هم فيها، معرفتهم بالجهة التي تشكّل إنقاذاً لهم ومخرجاً من الوضعية السيئة التي هم فيها؛ هؤلاء هم المستضعفون الذين هم موعودون بالإنقاذ، ويأمر المؤمنين الذين هم في وضعية أخرى أن يعملوا لتحرير هؤلاء وإنقاذهم. أمَّا المستضعفون الآخرون فإنهم يكونون هم الضحية؛ لأنهم هم يصبحون في الأخير، موقفهم، هم ميدان للتضليل، هم ميدان للخداع، ويأتي من جانبهم أشياء كثيرة تُعتبَر سنداً للعدو، هؤلاء يُداسون، ويضيعون ويسلط الله عليهم.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾(النساء:٧٦) إذاً هذا فاصل في الموضوع؛ ليثبت أن المؤمنين هكذا يجب أن يكونوا مقاتلين ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والكافرون هم عادة يكونون مقاتلين ﴿فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ فيعطي أملاً للمؤمنين – وهم يقاتلون في سبيل الله – بأن الله هو الولي والنصير، وكفى به ولياً وكفى به نصيراً، وهو القدير، وهو القوي العزيز...إلى آخر الوعود التي ذكرها في كتابه، والكافرون مهما كانوا ومهما بلغت قوتهم ففيهم نقطة ضعف كبيرة جداً: كونهم يقاتلون في سبيل الطاغوت، وكونهم أولياء للشيطان ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾(النساء:٧٦).

فتجد هذا الشيء في أكثر من آية – مثلما قلنا سابقاً – يُقدِّم صورة عن العدو؛ ليبيِّن لك بأنه في حالة ضعف ولديه نقطة ضعف كبيرة جداً، كل نقاط القوة لديك وهي: كونك في سبيل الله، وكونك معتمداً على الله، ومتوكلاً على الله، ومنتصراً بالله، هذه إيجابية كبيرة. الطرف الآخر هذه نقاط ضعف كبيرة فيه، تُمكّنك من أن تتغلب عليه وتقهره؛ ولهذا قال بعد: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ بمعنى أن كونهم ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ يعني ماذا؟ نقطة ضعف كبيرة جداً لديهم تُهيئهم لأن يُهزَموا ويُقهَروا، قال بعد: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أليس هذا تشخيصاً للعدو، يشخص للناس المؤمنين كيف سيكون العدو ونفسيته وواقعه؟ كل هذه الأشياء تُقابَل بمنطق آخر: (هم كذا، ولديهم كذا، ولديهم، ولديهم، ونحن ليس لدينا، ولا لدينا) وينسى أنه يُقدِّم حتى قضية (الله) أي: يَعتبِر نفسه في حالة ضعف لا يمتلك أيَّ قوة لم يعد يُقدِّم (الله) القوة التي لا تُقهَر نهائياً، يقول لك: (ليس لدينا، ولا لدينا، ولا، ولا، إذاً سنقعد، وكيفما كانت الأمور).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَونَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَو أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَينَا الْقِتَالَ﴾ قد أصبح فيهم خشوع الآن ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَينَا الْقِتَالَ لَولاَ أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾(النساء:٧٧) كم الفارق بين هذا المنطق ومنطق الآخرين: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَينَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَومِ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة:٢٥٠)؟!

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَونَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَو أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَينَا الْقِتَالَ لَولاَ أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً * أَينَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوتُ﴾(النساء:٧٧، ٧٨) إذا أصبحتَ هكذا: تخشى الناس كخشية الله أو أشد خشية وقد أصبح فيك دعاء بخشوع ولكن عكس، أي: أنت خائف من الموت، فافهم بأن قضية الموت ستأتيك عندما تقول: ستقعد، أو أنت راغب أن تقعد ﴿وَلَو كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾(النساء:٧٨).

القضية هنا هي تُقدِّم نموذجاً عالياً جداً، موضوع التوجيهات في القرآن الكريم تُقدِّم إنساناً نموذجاً عالياً جداً، هو قوي لكن في نفس الوقت متزن وحكيم، ليسوا من النوعية الذين فيهم تَنَطُّط وعندما يُكتَب القتال فقد أصبح فيهم خشوع آخر، وخشية من الناس أشد من خشيته من الله؛ لأن هذه هي تُعتبَر حالة غير صحيحة، عندما يكون هناك أناس لديهم (تَنَطُّط) قد يؤثرون على قيادتهم فتدخل في مواقف غير حكيمة؛ لأنه ملاحظ مع أن يكونوا أشداء وأن يكونوا أولي بأس شديد، وأن يكونوا مستبسلين مضحين راغبين في الشهادة في سبيل الله يجب أن يكونوا أيضاً متزنين، وفي نفس الوقت طاعة. لا أن يكونوا متنطعين من الذين ﴿قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾(النساء:٧٧) قالوا: (لا، أبداً)! فإذا جاء وقت الصدق لم يعد فيه ذلك التنطع وإذا به قد أصبح لديه كلام آخر وقد صار يخشى الناس أشد من خشيته لله.

هذه نفسية عجيبة لا تحصل أبداً إلاّ عند المؤمنين الذين يسيرون على كتاب الله وهديه: أقوياء، أشداء، لا يتهيَّب من المواجهة، لكن وكل شيء في وقته وكل موقف بما يتطلبه، ليسوا متنطعين بحيث يزعجون قيادتهم فتدخل في مواقف قد تكون تضرّ بهم ولا تخدم القضية التي هم فيها، ولا هم ممن عندما تأتي مواقف كبيرة يكون لديهم خشية من الناس أشد من خشية الله. هذه النوعية عالية، أي: أن القرآن يبني الإنسان بناء صحيحاً متكاملاً.

ثم لاحِظْ هنا في الأخير كشف المسألة بأنها في الواقع خوف من الموت، أليست خوفاً من الموت؟ بعدما قال هناك سابقاً: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(النساء:٧٤) وأنت لا بُد أن تموت، أنت تريد أن تقعد لأنك خائف من الموت لا تريد أن تموت ستموت ﴿وَلَو كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾(النساء:٧٨) فأفضل لك أن تموت في سبيل الله، ألاّ تخاف من موضوع الموت ألاّ يُقعِدك الخوف من الموت؛ لأن قعودك لن ينجيك من الموت فإذا كان لا بُد من الموت فالأفضل أن تموت في سبيل الله بل أن تطلب أن تموت في سبيل الله.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾(النساء:٧٨) قد أصبحت المقاييس لديهم "مخربطة"[1] ونظرتهم لم تعد صحيحة ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَينَا الْقِتَالَ﴾(النساء:٧٧) وهنا: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ أنت السبب، أنت الذي فتحتَ علينا المشاكل، وجلبتَ علينا المشاكل! ﴿قُل كُلٌّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ الحسنة وهذه السيئة التي تصيحون منها كلها من عند الله، وأصلها أساسها وأسبابها الأولى من عندكم.

﴿قُل كُلٌّ مِنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَومِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾(النساء:٧٨) لأنهم لو كانوا يفقهون حديثاً لكانت نظرتهم أخرى وكانت رؤيتهم أخرى وكانت نفسياتهم نفسيات عالية؛ أما هذه فنفسية ضعيفة نفسية يبدو وكأنها لا تسمع شيئاً ولا تفقه أيَّ حديث من هذا الحديث العظيم الذي هو توجيه للناس ليبنوا أنفسهم على أساسه، و يربوا أنفسهم على أساسه، ويكونوا مستبصرين مستنيرين على أساسه.

﴿فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَومِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾(النساء:٧٨) هذه فيها سخرية منهم؛ لأن هذه القضية ليست سهلة ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾(النساء:٧٨) وهم في الواقع هم أسباب رئيسية تؤدي إلى أن يحصل عليهم مشاكل أو يحصل ما يسمونه (سيئة) أسبابها الرئيسية من عندهم، هذه عبارة عجيبة: ﴿فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَومِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ﴾(النساء:٧٩) مثلما قال في آية أخرى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾(الشورى:٣٠) ﴿فَمِن نَفْسِكَ﴾ أي: أسبابها الأولى من عندك وكلمة ﴿سَيِّئَةٍ﴾ و﴿حَسَنَةٍ﴾ شاملة وواسعة، فعندما يخاطب نبيه (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) على هذا النحو ليفهم الناس كلهم، فعندما يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ﴾(النساء:٧٩) إذاً فالكل يفهمون أن ما أصابهم من سيئة فهي من جهة أنفسهم، والسيئة ليست دائماً تُفسَّر بما يُعتبَر في مقاييسنا شراً ويسمى سيئة، أحياناً قد يكون شيء يبدو وكأنه سيئة لكن هو في الواقع حسنة، تتميز المسألة، تكون واضحة، فالذي هو فقط كأنه يبدو في الصورة شيئاً من الأشياء الصعبة لكن هو في الواقع ليس سيئاً، بل له أثر إيجابي، بعض الأشياء تكون سيئة بكل ما تعنيه الكلمة لا يوجد وراءها أيُّ إيجابيات إلاّ إذا حاولوا أن يأخذوا دروساً وعبراً منها ليعودوا إلى الوضعية الصحيحة حتى لا يصابوا بمثل هذه فهذا ممكن، أمَّا أشياء أخرى تبدو أحياناً وكأنها سيئة لكن لها إيجابيات كبيرة وهامة في الموضوع الذي الناس فيه.

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ بعدما قال: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ﴾ وأنت رسول ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾(النساء:٧٩) شهيد على عباده جميعاً على الرسل وعلى المؤمنين وعلى كل مخلوقاته.

﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ كلمة (رسول) ذُكِرت كثيراً جداً في هذه السورة ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيهِمْ حَفِيظًا﴾(النساء:٨٠) هذه آية قاطعة تجعل طاعة الرسول طاعةً لله؛ لأن الرسول يسير فيما هو طاعة لله ويهدي إلى الله ويبلغ عن الله، وتلاحِظ هذه في الأخير تُبيِّن للإنسان كيف ما يسمى: ولاية الله، أو سلطان الله، الله سبحانه وتعالى أليس مَلِك السموات والأرض؟ مَلِك السموات والأرض أنه يجعل من عباده، فرسوله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ولايته امتداد لولاية الله أو تجسيد لولاية الله على عباده عندما قال: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

(١) مخربطة: من اللهجة العامية، أي: مخبوصة.

عندما يقول لك مثلاً الرئيس: إذا كنتَ تطيع المحافظ فاعتبِر طاعتك للمحافظ طاعة لي، أليس يَعتبِر المحافظ امتداداً لسلطته؟ أي: فيعرف الناس بأن ليس معناه أن الله مَلِك السموات والأرض ثم في الأخير لا تدري كيف يمكن أن يكون هناك امتداد لملكه وسلطانه في هذا الجانب: تعامُل مع عباده في موضوع دينه في هدايته ولاية أمر عباده، ليست قضية مفصولة حتى نقول: (إذاً إن الله في دينه ترك القضية إلى الناس إمَّا أن يتشاوروا فيما بينهم أو ينتخبوا من أرادوا) أو أشياء من هذه، وكأنهم متروكون هم يُدبِّرون أنفسهم على كيفهم وعلى ما يحبون، هنا يوضح كيف أنه يختار بشراً من عباده ويكون امتداداً لولايته امتداداً لسلطانه مثلما يأتي ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾(النحل:٦٠) رئيس أو مَلِك ويُعيِّن أميراً أو محافظاً على منطقة مُعيَّنة أليس هو الذي يُعيِّنه ويَعتبِره امتداداً لسلطانه؟

أي: ليست المسألة أن تُقدَّم أرقاماً أخرى، بل إنه في إطار واحد عندما يقول: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾(النساء:٥٩) ليس المعنى أنه يُقدِّم أرقاماً أخرى، لا، بل هي مسيرة واحدة هي تجسيد وتطبيق وتمثيل لماذا؟ لولايته سبحانه وتعالى؛ لأنه مَلِكهم مُلْكاً مباشراً وليس فقط مجرد حكم نحكم له بأنه مَلِك لكن ليس له نفوذ وليس له أيُّ طريقة يمكن أن تجسِّد امتداد ملكه امتداد ولايته على عباده. هنا يقول: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾(النساء:٨٠) ليس لأن الرسول ندّ. إن الرسول نفسه في عمله فيما يقوم به هو منفّذ ما هو مِن عند الله سبحانه وتعالى، فهو امتداد لولاية الله بالنسبة لعباده.

أن يأتي في هذا المقام: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ بعدما ذكر هذه الفئات في موضوع الحكم، القضاء الذي يقضي به فيما بينهم، هذه الفئة التي تتراجع عندما يُكتب القتال، وإذا أصابهم مصيبة قالوا: هي من عندك، وأشياء من هذه، يقول: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ كلمة قد تكون أبلغ من ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾(النساء:٥٩) أبلغ، أي: لم يعطِ أيَّ اعتبار لكل تلك المشاعر التي تُعتبَر شاذة لديهم، بل لا بُد أن يطيعوه، وطاعته هي طاعة لله، وليس أن يقولوا – عندما تصيبهم مصيبة –: (هذه من عندك) ويريدون أن يذهبوا من عندك (هو فقط يريد أن يسبب لنا المشاكل ولولاه لَمَا حصلت علينا هذه المصائب) وأشياء من هذه؛ لذلك جاء بعدها: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾(النساء:٨٠).

ولأن الله سبحانه وتعالى – عندما تجد في القرآن الكريم – يُبيِّن رحمته ومظاهر رحمته، يختار نوعية عالية، هل الرسول رجل اعتباطي (عبيط) هكذا لا يبالي بالناس، ولا يرحم الناس وليس حريصاً على الناس وأشياء من هذه، فكأنه يأمرهم بطاعة إنسان أحمق أعوج مثل (صدام حسين)؟ لا، ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾(النساء:٨٠) والرسول اختاره شخصاً على أرقى مستوى ويسير بهدى الله.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ مجرد قول ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ بعد أن يكون قد قال لهم وأمرهم ﴿يَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ لكن وبعد ذلك يقولون رأياً آخر وشوراً آخر ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾(النساء:٨١) في مقامات يأتي بعبارة: أعرضْ عنهم، وفي مقام يقول: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَولاً بَلِيغًا﴾(النساء:٦٣) المقامات تختلف والوضعيات تختلف والموقف الذي هم فيه مع عدو من الأعداء يختلف. هنا يعطي الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ما يطمئنه بأن هؤلاء لن يُضعِفوا جانبك قال هنا: ﴿وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيهِمْ حَفِيظًا﴾(النساء:٨٠) ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾(النساء:٨١) وسيهيئ مَن هم أفضل مِنهم، ويهيئ بدائل عنهم.

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾(النساء:٨٢) عندما تكون نفسيتهم على هذا النحو، يبدو وكأنها ماذا؟ مظهر من مظاهر عدم تدبُّرهم للقرآن؛ لأن القرآن فيه ما يهدي الناس فتكون رؤيتهم صحيحة ونفسياتهم صحيحة ويعرفون قيمة الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) يعرفون أهمية هدى الله.

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَو كَانَ مِنْ عِندِ غَيرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾(النساء:٨٢) هذه الآية من الآيات العظيمة في القرآن نفسه، تجده على سعة المواضيع التي تناولها واسعاً جداً جداً، وتجد أنه ليس فيه اختلاف على الإطلاق ولا من النوع الذي يكون اختلاف على مسافات بعيدة، قد تكون القضيتان يبدو وكأنهما متفقتان أمامك وبعد كم مسافة تختلفان في أثرهما هناك على بُعد، هذه لا وجود لها في القرآن على الإطلاق.

وفي القرآن ما يدلهم على أنه من عند الله، والرسول أمامهم يعرفون أنه رسول الله، فلماذا هم على هذا النحو؟ يحكي عن نفسياتهم وكأنهم لا يفقهون حديثاً، ألم يقل هكذا عنهم؟ ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ ليفقهوا، أليست هذه دعوة حتى لمن نفوسهم مريضة، أو منافقون ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أن يتدبروه؟ ليس معناه أن يأتي ليفسِّره

تفسيراً، هذا موضوع آخر، بل اقرأه بتأمل، تجد وهو يتحدث عن الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) يعطي لهذا الرجل قيمة عظيمة، وأنه إنسان حكيم، وأنه يسير بهدى الله؛ حينها ترجع إلى نفسك تقول: إذاً سأطيعه، أطيعه؛ لأن الله لا يمكن أن يصطفيه ويختاره ويكون بالشكل الذي يكون أحمق؛ لأن الله رحيم وحكيم وعليم لا يمكن أن يختار لنا شخصاً أحمق، فهنا سينطلق، لكن إذا لم يكن هناك تدبُّر فستكون نفسية الإنسان هناك بعيدة.

﴿وَلَو كَانَ مِنْ عِندِ غَيرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾(النساء:٨٢) تجد اختلافاً كثيراً في كتاب يتناول موضوعاً واحداً مما يكتبه الناس، وهو يتناول موضوعاً واحداً، ما بالك بكتاب يتناول مواضيع الحياة كلها، يُقدِّم لك الحياة كلها حتى ماضيها، كتاب عن هذه الحياة، والحياة الآخرة، عن الماضي والحاضر والمستقبل، واسع جداً جداً، ومع هذا لا ترى فيه اختلافاً على الإطلاق.

والاختلاف لا يتوقف فقط على المخالفة في النص؛ لأن عندنا قاعدة أساسها حديث من رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم): ((ما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله فما خالف كتاب الله فليس مني)) ليست المخالَفة معناها فقط المخالَفة النصية الواضحة، هذا شيء، تأتي مخالَفة هناك على بعد؛ ولهذا قضية العرض على القرآن قد يكون كثير من الناس ليس بإمكانه إلاّ أن يعرض ما يُعتبَر واضحاً في الصورة مثل حديث: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي) و(من قال لا إله إلاّ الله دخل الجنة) وأشياء من هذه قريبة أمامك، ترى نصها معارضاً للنصوص الواضحة أمامك، وأحياناً تكون هناك قضايا لا تظهر بأنها مخالفة للقرآن إلاّ على عُمْق، على بُعد، وعندما تعرف أن القرآن الكريم هو كتاب عميق في نفس الوقت تجد بأن ليس هناك اختلاف داخله، إلى أعمق عُمْق (إلى قَعْرِه) إذا كان هناك قعر، لا يوجد اختلاف في هذه كلها.

رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) وهو مبلِّغ عن الله وهادٍ على أساس كتاب الله، لا يمكن أن يأتي مِن عنده توجيه للناس وهو بالشكل الذي يخالف القرآن حتى على هذا البعد وعلى هذا العمق لا يمكن على الإطلاق. لاحِظ في كثير من كتب الترغيب والترهيب هناك روايات هم يقولون عنها بأنها باهرة وطبيعية تُصْلح الناس وستجعلهم بعيدين عن المعصية، وأشياء من هذه، لا يلمسون بأنها تخالف القرآن هناك، وبعضها قريب على بعد كم أمتار ليس في العمق، بعضها فعلاً تكون قريبة لو كان هناك تأمل لظهرت مخالِفة للقرآن.

عندما تعرف ميدان القرآن، ميدان القرآن: الإنسان، وهذه الحياة (الميادين) فإذا كان هناك توجيه مُعيَّن فاعرف بأن القرآن نفسه له رؤية، هو يريد أن يبني نفسية الإنسان على نحو مُعيَّن، فله مقاصد وأهداف بالنسبة لنفسيات الناس، أي: عنده منهج تربوي، إذاً فعندما يكون هذا الذي هو رواية وتراها مخالفة هناك، أي: تعطي أثراً في النفس آخر يتبيَّن أنه مخالف لِمَا يريده القرآن، فهذا يُعتبَر مخالِفاً، وهذا لا يمكن أن يكون صحيحاً عن رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) يكون صحيحاً عنه كتوجيه عام، إمَّا أنه قد لا يكون صحيحاً نهائياً أو قد يكون صحيحاً لكن قد يكون في قضية محدودة، أو أمام شخص مُعيَّن في حالة مُعيَّنة فقط، مثل ذلك الذي قال له: عِظْني يا رسول الله، قال: ((لا تغضب)) ألم يقل له هكذا: ((لا تغضب))؟ وقال لآخر بعد أن شكا عنده موضوع والديه أو أحدهما قال: ((ارجع ففيهما فجاهد)) هذا خطاب خاص. وعندما يقول هذا، هو يعرف هذا الشخص ويعرف طبيعته عندما يقول له: ((لا تغضب)). والشخص الآخر هو يعرف وضعيته ويعرف وضعية والديه عندما يقول له: ((ارجع ففيهما فجاهد)) وإذا بهم في الأخير قد أصبحوا يريدون: ارجع ففيهما فجاهد، وأبوه صحيح ومعه أولاد كثيرون غيره، ويظن أنه يجاهد لأنه يجلس عند أبيه أو عند أمه! لا يمكن هذا.

هذه أيضاً تُعتبَر مقياساً هامًا جداً ودقيقاً يختلف عن مقاييس (أصول الفقه) في موضوع التفريع والتشريع الذي يسمونه تفريعات وقضايا مستجدات وأشياء من هذه، أحياناً قد تنطلق تُفرِّع على قضية مُعيَّنة ولا تدري وتكون النتيجة تُظهِر هناك حُكماً وإذا هو مخالف لقضية أساسية في القرآن؛ ولهذا كان يظهر في حركة أهل البيت في الماضي كان يظهر فيهم أعلام ويتحركون ولا تدري واشتغلت تلك المسائل التي قد استنبطها المفرِّعون، قد صارت (مطبات) أمام إقامة دين الله. يجب أن تفهم أنه لا يمكن – أبداً – في دين الله أن يأتي تشريع يبدو متناقضاً أو معارضاً أو يشكّل عائقاً أمام تشريع آخر على الإطلاق، وإلاّ لكان هذا ماذا؟ مظهراً من مظاهر الاختلاف. ليس الاختلاف فقط في موضوع ما فيه اختلاف في نصه بل في مضامينه، في رؤاه، فيما يتركه هناك في النفوس، لا يحصل اختلاف على الإطلاق، يقول لك: تقرأ مجموعة من قواعد (أصول الفقه) ثم تنطلق تفرِّع وتشرِّع؛ في الأخير يضعون (مطبات) كبيرة.

تجد القرآن يتحرك في أكثر من اتجاه وبشكل عجيب، تراه في منطقه يراعي أن الله رحيم، مبني على أن الله رحيم، وعلى أن الله حكيم، وعلى أن الله بكل شيء عليم، وعلى أن الله غالب على أمره، وأنه على كل شيء قدير، وأنه غني، وأنه هو الذي خلق الإنسان؛ ولهذا قال: ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾(الملك:١٤) ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(الفرقان:٦) تجده في مضامينه كلها، لا تجد وكأن قضية مُعيَّنة تبدو أنها تختلف مع أنه رحيم، أو قضية مُعيَّنة يظهر فيها أنها تتنافى مع أنه حكيم أو مع أنه غني أو مع أنه يعلم الغيب والشهادة، لا يوجد، كلها مصاديق يصدِّق بعضه بعضاً، كما قال الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) في حديث روي عنه.

يُقدِّم القضايا بشكل لا يمكن أن تصل إليها ذهنية أحد. كم ذكر من أشياء كثيرة جداً حول (معركة أحُد) وكيف يأتي يتعرض لموضوع هذه المعركة، كم قدَّم من دروس وأحاط بالقضية من كل جوانبها، لا يستطيع خبراء عسكريون ولا قانونيون ولا سياسيون على الإطلاق أن يصلوا إلى شيء من هذا؛ ولهذا قال عنه: ﴿قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَو كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(الإسراء:٨٨) ولو كانوا متعاونين كلهم فلا يستطيعون؛ لهذا كانت خسارة كبيرة جداً على الأمة أن تبتعد عن القرآن، يعطيها نوراً، يعطيها معرفة، يعطيها علماً، يحصل عندها شبه إحاطة بالقضايا من خلاله بالشكل الذي لا يمكن أن تحصل عليه من أيِّ كلية أو أيِّ جامعة على الإطلاق، أو من أيِّ جهة من الجهات مهما كانت خبراتها.

لاحِظ الأمريكيين وهم متجهون إلى احتلال الناس، احتلال البلدان، أليسوا يبدؤون يدرسون قضايا ويضعون خططاً ويفكرون، وخطط بعضها تستمر سنين يدرسونها ويطورونها ويعدلونها وأشياء من هذه؟ ولا تدري واكتُشِف عندهم أخطاء كبيرة تُعيقهم في مسيرتهم، أخطاء كبيرة جداً؛ لأنها كانت قضايا ليسوا محيطين بها ولن يستطيعوا أن يحيطوا بها من كل جهة، لاحِظ كيف هم الآن هناك في العراق مُحرَجون: إن حاولوا أن يكون هناك أمن معنى هذا أنه لا بُد من حكومة، أي: يقوم في العراق دولة وهم لا يريدون هذا، وإن جاءت قلاقل داخلها بهذا الشكل فسيكون معناه برهنة على أنهم لم يحققوا للناس ما يدَّعون أنهم يريدون تحقيقه من تغيير أنظمة ويكون هناك وضع مستتب وأمن مستقر إلى غيره؛ وضعية الآن مُحرِجة فعلاً، لا يريدون حصول أمن؛ لأنها ستأتي طلبات: دستور، وحكومة، وانتخابات، وأشياء من هذه، وهم لديهم نوايا أخرى، وأن يكون بهذا الشكل فهو وضع مقلق جداً لهم؛ لهذا يحاولون كيف يصرفون الأشياء يحرفونها، يقول لك: بقايا نظام، ويقول: هناك أناس دخيلون من سوريا ومن السعودية، من أفراد آخرين؛ لئلا يحصل عند الشعوب الأخرى فكرة تحول دون قابلية أمريكا لتحررهم كما تقول، معناه أمريكا وراءها وضع قلق بشكل مستمر فلا يكون هناك استقرار أمني، الناس سيفهمون هذه، فيحاولون أن يوحوا للناس: لا، هذا ليس من جهة العراقيين هذا من جهة الآخرين (دول تتدخل) أليسوا يحاولون أن يركّزوا على هذه؟ ولن يحاولوا أن يكون هناك أمن؛ لأنه إحراج لهم.

إذاً فتحركوا بكل قواتهم بعد التخطيط وبعد هذه الأشياء وإذا هم في وضعية حرجة، فيحاولون أن يحمِّلوا المسؤولية أطرافاً أخرى: أن إيران تتدخل، أن السعودية تتدخل، وسوريا، وتنظيم القاعدة، وبقايا النظام السابق، في الأخير يعملون مع الشعوب الأخرى بهذه الحجة: أنهم يتدخلون لا يريدون للعراق أن يكون مستقراً، أي: أنهم أمة يقيمون أعمالهم على أساس تخطيط وتنظير، لديهم منظرون سياسيون، لديهم مخططون مهندسون – يسمونهم – في السياسة، ولديهم خبراء ومعلومات كثيرة عن المجتمعات عن الدول عن النفسيات، لكن تراهم يُخفِقون، لا يمكن لأمة أن يحصل لها – على الإطلاق – لا خبرات ولا خبراء ولا أيُّ شيء يكون مقارباً لهذا القرآن على الإطلاق، إنها خسارة كبيرة أن تكون هذه الأمة تراها في وضعية سيئة، ووضعية جهل مُفْرِط، والقرآن بين أيديهم.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَو رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَولاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(النساء:٨٣) هذا فيما يتعلق بالإشاعات، بـ(الأخبار) يمثل ضابطاً مهماً وتوجيهاً مهماً بالنسبة للمسلمين؛ لأن قضية إشاعة الأخبار قد يكون لها آثار سيئة في أوساط الناس: توجِد بلبلة وتوجِد ضعفاً، فالمفروض في مواجهة أيِّ أمر من الأمن أو الخوف – هي القضية بمعنى إشاعة؛ لأن كل القضايا تكون متعلقة بجانب أمن أو خوف – ألاّ يشيعوه، ألاّ يذيعوه ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ مثلما تعمل القنوات الفضائية والصحفيون: أيُّ خبر يكون همه أن يستبق إليه ويعلنه فحسْب، هذه غلطة كبيرة جداً.

﴿وَلَو رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ فيعرفون أن هذا الخبر قد يكون

مجرد شائعة، كيف يقابلها، أو هذا الخبر يوحي بشيء حقيقي كيف الموقف المناسب منه، وهكذا؛ لأن بعض الأخبار تكون من التي تُسمَّى تسريبات، بعضها تكون تسريبات وراءها شيء، توحي بشيء، هنا قال: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ هي توحي بشيء، فكيف الموقف المناسب منه، كيف يعمل خبراً آخر يقاومه، أو كيف يعمل عملاً مُعيَّناً يقاوم ذلك الشيء الذي حاول الأعداء من خلال تسريبهم أن يوصلوه إلى الناس ليعرفوا كيف سيكون موقفهم منه، أو ينقل لك قضية التحليلات، أن يتعود الناس على التحليلات والأخذ والرد في القضايا، ليست قضية صحيحة أبداً؛ لأن الأعداء أنفسهم ما زالوا يحاولون أن يستبينوا استبياناً: كيف رؤى الناس، وكيف مفاهيمهم، وكيف يمكن أن ينطلي عليهم التضليل، هل يمكن أن نؤقلم رؤاهم على ما نريد، ونصنع – نحن – الرأي لهم في القضايا؟

والعجيب أن هذه الطبيعة تحصل عند الناس مع أنه لا يوجد لديهم نية عملية، ليس لديهم نية عملية إلاّ مجرد كلام هكذا. هذا ممنوع سواءً أكان عند الناس نية عملية أو ليس عندهم توجُّه عملي، ممنوع، لا يُعتبَر أسلوباً صحيحاً على الإطلاق وخاصة في هذه المرحلة، هذه مرحلة خطيرة جداً في موضوع الأخبار والتسريبات التي يأتون بها؛ لهذا يجب أن يكون الناس أذكياء ولديهم قدرة على كشفها وعلى أن يتخذوا الموقف المناسب أمام العدو بعد تسريب مُعيَّن، وإلاّ فقد تكون بعض الشائعات وراءها احتلال، وراءها سفك لدمائهم، وراءها تدمير لبيوتهم، ليست قضية سهلة. هذه الأشياء ظهرت في العراق، مثل: بعض الشائعات التي يعملها الأمريكيون عندما ينطلق الآخرون يرددونها، في الأخير تفتح عليهم باب شر، عندما كانوا يضربونهم وقالوا: بقايا النظام السابق! قالوا: بقايا النظام السابق، على حسب ما يقدِّمه الأمريكيون، وضربوهم مرة أخرى، وهكذا.

المشكلة في البلاد العربية فيما يتعلق بالإعلام أنهم لا ينطلقون على هذا الأساس، كثير من الصحفيين، وكثير من القنوات الفضائية لا يكون لديهم موقف مُعيَّن مبني على رؤية مُعيَّنة، فقد يكون بعض الأخبار غير مناسب أن تنشره نهائياً، لكن قد أصبح لديهم هواية أنه لا بُد أن ينشروا أيَّ خبر؛ فتجدها لم تُقدِّم شيئاً للأمة، ماذا قدَّموا؟ ماذا تركوا من أثر للناس؟ هل حصل توعية للناس من خلال ما قدَّموه، يعطي رؤية واحدة وموقفاً واحداً؟ لم يحصل شيء.

هذا يدل على أهمية الأخبار، أنه يجب أن تُردَّ ﴿إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ وإذا لم يكن هناك التزام بهذه الطريقة فقد تكون منفذاً للشيطان قد تكون منفذاً لاتِّباع الشيطان، فمن رحمة الله أن يُوجِّه الناس إلى توجيه يُبعِدهم عن اتِّباع الشيطان ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾(النساء:٨٣) وهذا من فضله: أن يوجههم كيف يتعاملون مع الخبر مع الشائعات، سواءً من صحيفة أو إذاعة أو تلفزيون أو كيفما كانت.

﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً * فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾(النساء:٨٣، ٨٤) ولاحِظْ كلما يذكر قضية هي عادة من الأشياء التي تشكّل وهناً داخل المجتمع، ألم يذكر هنا عن أشخاص مواقفهم، منطقهم؟ لكن هنا يعطي أملاً وتثبيتاً للنبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) كذلك للمؤمنين أن يظلوا مستقيمين وثابتين؛ لأن هذه الأشياء في الأخير عندما تكون من أطراف لم تَعُد تُعتبَر منهم – فمن هو منكم مؤمن فسيلتزم – فهذه لن تضر في الأخير إذا كانوا ثابتين، أي: ليس المعنى أن الاستقامة والثبات أن تكون ثابتاً ومستقيماً لكن إذا لم يكن هناك شيء: لا عدو، ولا كلام، ولا شائعات، ولا شيء. استقمْ، وكن ثابتاً، ويأتي هذا التأييد من الله سبحانه وتعالى وإن كان هناك أشياء.

وهذه قضية هامة؛ لأن كثيراً من الناس متى ما رأى الوضع: أناس لا ينطلقون، وأناس مُثبِّطون، وأناس كذا، وأناس يتحركون مع العدو...إلخ، اعتبَر أنها قضية لم يعد بالإمكان أن يتحرك فيها شيء، أنها وضعية لا يمكن أن يستقيم فيها عمل، ولا ينجح الناس – أبداً – أن يعملوا في دين الله فيها؛ لهذا قال له: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وعسى من جهة الله هي وعد ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾(النساء:٨٤) وسابقاً بعدما قال عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيرَ الَّذِي تَقُولُ﴾(النساء:٨١) كيف قال بعد؟ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾(النساء:٨١) أليست تلك حالة تُعتبَر خطيرة؟ أليس المطلوب في مواقف

الناس أنه ﴿طَاعَةٌ﴾ وطاعة حقيقية؟ لكن قد يحصل أناس آخرون يُبيِّتون خلاف ما تقول، ألستَ ستَعتبِر هذه حالة من الوهن داخل المجتمع الذي أنت فيه؟ ﴿تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا تتراجع، لا يحصل لديك تراجُع عندما ترى مظاهر من هذه التي تُعتبَر خلخلة.

هذه – فعلاً – قضية ملموسة في الناس: إذا نظر أحد ورأى: عارَضوا من هنا، وأناس من هناك، وضجة، وأشياء من هذه، قال: (يا أخي لن يتم شيء) أليس سيقول هكذا في الأخير؟ لاحِظْ هذه الآيات كيف سياقها ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾(النساء:٨١) هنا يأتي في موضوع ما قد يتركه الخبر والشائعات من أثر فيقعد أناس ويتخلف أناس ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ﴾ لو لم يبقَ إلاّ أنت ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ﴾(النساء:٨٤) فإذا كان هناك ضعف وقد تعتقد بأن هذا الضعف يمثل نقطة قوة عند الآخر، فالله على كل شيء قدير قد يوجِد هناك ضعفاً في جانب العدو بالشكل الذي لا يُعتبَر هذا إيجابية ونقطة قوة بالنسبة للعدو، الضعف الذي حصل عندك ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾(النساء:٨٤).

إلى هنا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين.

[الله أكبر / الموت لأمريكا / الموت لإسرائيل / اللعنة على اليهود / النصر للإسلام]

تم هذا الإخراج الجديد بعد مزيد من
المراجعة والمقابلة مع (الكاسيت) الصوتي
بتاريخ: ٢٨ جمادى الآخرة ١٤٤٢هـ
الـمـوافــق: ١٠/ ٢/ ٢٠٢١م

الله أكبر
الموت لأمريكا
الموت لإسرائيل
اللعنة على اليهود
النصر للإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

دروس من هدي القرآن الكريم

ألقاها السيد / حسين بدر الدين الحوثي

قاطعوا
البضائع الأمريكية
و
الإسرائيلية

دروس من سورة آل عمران	الدرس الأول ٢٠٠٢/١/٨م	الدرس الثاني ٢٠٠٢/١/٩م	الدرس الثالث ٢٠٠٢/١/١١م	الدرس الرابع ٢٠٠٢/١/١٢م
دروس من سورة المائدة	الدرس الأول ٢٠٠٢/١/١٣م	الدرس الثاني ٢٠٠٢/١/١٤م	الدرس الثالث ٢٠٠٢/١/١٥م	الدرس الرابع ٢٠٠٢/١/١٦م
دروس معرفة الله				
الثقة بالله ـ الدرس الأول ٢٠٠٢/١/١٨م	نعم الله الدرس الثاني ٢٠٠٢/١/١٩م	نعم الله الدرس الثالث ٢٠٠٢/١/٢٠م	نعم الله الدرس الرابع ٢٠٠٢/١/٢١م	نعم الله الدرس الخامس ٢٠٠٢/١/٢٢م
عظمة الله الدرس السادس ٢٠٠٢/١/٢٣م	عظمة الله الدرس السابع ٢٠٠٢/١/٢٥م	عظمة الله الدرس الثامن ٢٠٠٢/١/٢٦م	وعده ووعيده الدرس التاسع ٢٠٠٢/١/٢٨م	وعده ووعيده الدرس العاشر ٢٠٠٢/١/٢٩م
وعده ووعيده الدرس الحادي عشر ٢٠٠٢/١/٣٠م	وعده ووعيده الدرس الثاني عشر ٢٠٠٢/٢/٤م	وعده ووعيده الدرس الثالث عشر ٢٠٠٢/٢/٥م	وعده ووعيده الدرس الرابع عشر ٢٠٠٢/٢/٦م	وعده ووعيده الدرس الخامس عشر ٢٠٠٢/٢/٨م
دروس متفرقة				
الصرخة في وجه المستكبرين ١٧/ ١/ ٢٠٠٢م	{اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً} ٢٠٠٢/١/٢٤م	الهوية الإيمانية ٢٠٠٢/١/٣١م	في ظلال دعاء مكارم الأخلاق (١) ٢٠٠٢/٢/١م	في ظلال دعاء مكارم الأخلاق (٢) ٢٠٠٢/٢/٢م
خطر دخول أمريكا اليمن ٢٠٠٢/٢/٣م	لتحذن حذو بني إسرائيل ٢٠٠٢/٢/٧م	معنى الصلاة على محمد وعلى آل محمد ٢٠٠٢/٢/٨م	معنى التسبيح ٢٠٠٢/٢/٩م	{وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى} ٢٠٠٢/٢/١٠م
{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ} ٢٠٠٢/٢/١١م	الإرهاب والسلام ٢٠٠٢/٣/٨م	مسؤولية طلاب العلوم الدينية ٢٠٠٢/٣/٩م	خطورة المرحلة ٢٠٠٢/٣/١٦م	دروس من وحي عاشوراء ٢٠٠٢/٣/٢٣م
{وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ} ٢٠٠٢/٧/٢٦م	الثقافة القرآنية ٢٠٠٢/٨/٤م	آيات من سورة الكهف الجمعة ٢٠٠٣/٨/٢٩م	{وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} ٢٠٠٢/٩/٢م	الإسلام وثقافة الاتباع ٢٠٠٢/٩/٢م
لا عذر للجميع أمام الله ١٤٢٢/١٢/٢١هـ	مسؤولية أهل البيت ٢٠٠٢/١٢/٢١م	أمر الولاية ١٨ من ذي الحجة ١٤٢٢هـ	يوم القدس العالمي ٢٨ رمضان ١٤٢٢هـ	دروس من غزوة أحد ذو الحجة ١٤٢٢هـ
آيات من سورة الواقعة ١٠ رمضان ١٤٢٣هـ	الشعار سلاح وموقف ١١ رمضان ١٤٢٣هـ	ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام ١٩ رمضان١٤٢٣هـ	حديث الولاية ١٨ من ذي الحجة ١٤٢٣هـ	{وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي} ١٤٢٣هـ
الموالاة والمعاداة ١٤٢٣هـ	{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا}	الوحدة الإيمانية	{فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى}	{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ}
من نحن ومن هم	دروس مديح القرآن من الدرس الأول إلى الدرس السابع من تاريخ ٥/٢٨ /٢٠٠٣م إلى تاريخ ٢٠٠٣/٦/٣م			
دروس شهر رمضان المبارك ١٤٢٤ هـ				
سورة البقرة: الآيات (٢١ـ ٣٩) ٣ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (٤٠ ـ ٦٦) ٤ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (٦٧ـ١٠٣) ٥ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (١٠٤ـ١١٤) ٦ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(١١٥ـ١٤٥) ٧ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة البقرة: الآيات (١٤٦ـ١٨٦) ٨ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(١٨٥ـ٢١٤) ٩ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(٢١٥ـ٢٥٢) ١٠ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(٢٥٢ـ٢٧٤) ١١ رمضان ١٤٢٤هـ	الآيات(٢٧٥من البقرة ـ٣٢ من آل عمران) ١٢ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة آل عمران: الآيات (٣٣ـ٩١) ١٣ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة آل عمران: الآيات (٩٢ـ١١٦) ١٤ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة آل عمران: الآيات (١٦١ـ آخر السورة) ١٦ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة النساء: الآيات (١ ـ ٤٢) ١٧ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة النساء: الآيات (٤٣ـ١١٦) ١٨ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة النساء: الآيات (١٣٥ ـ آخر السورة) ٢٠ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة المائدة: الآيات (١ ـ ٢٦) ٢١ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة المائدة: الآيات (٢٧ ـ ٥٧) ٢٢ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة المائدة: الآيات (٥٥ ـ آخر السورة) ٢٣ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأنعام: الآيات (١ ـ ٣٩) ٢٤ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة الأنعام: الآيات (٣٩ ـ ١٠٢) ٢٥ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأنعام: الآيات (١٠٣ ـ آخر السورة) ٢٦ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأعراف: الآيات (١ ـ ١٣٧) ٢٧ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأعراف: الآيات (١٣٨ـ١٦٢) ٢٨ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأعراف: الآيات (١٦٣ ـ آخر السورة) ٢٩ رمضان١٤٢٤هـ